كتاب مجلة " كلمة حق " (٢٢)
هدية العدد (٣٤) من مجلة " كلمة حق " مايو ٢٠٢٠

والآن أتذكر

بعض ما أمكن تسجيله من مذكرات الشيخ رفاعي طه
من مؤسسي الجماعة الإسلامية المصرية

سجلها عنه وحررها
محمد إلهامي

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدراً ضئيلاً، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن يكون لك حساب على موقع تواصل اجتماعي فيكون قد صار لك منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيتها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في "مجلة كلمة حق" بفكرة أن نقدم مع كل عدد كتاباً كهدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصاً لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسب ما نقدِّر أهمية الاطلاع عليه.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود..

نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم

مجلة
كلمة حق

المحتويات

مقدمة

كنت أعرف اسمه ولكني لم أعرف صورته قط، رأيته لأول مرة خطيبا لعيد الفطر (2012م) وتأثرت بخطبته دون أن أعرفه، ولما سألتُ أُخبرتُ بأنه "الشيخ رفاعي" الخارج توا من سجون مبارك ومن الجهاديين القدامى. وحيث كانت سجون مبارك ممتلئة فلم أعِر الأمر اهتماما وظننتُه أحد أعضاء الجماعة الإسلامية أو جماعة الجهاد أو حتى الشباب الذي تحمس قديما وجاهد في أفغانستان ثم لما عاد وُضِع في السجن.

بعد تلك اللحظة بسنتين كنتُ قد وصلت إلى إسطنبول بعد الانقلاب العسكري بمصر، وأتيح لي أن أراه في مقر تحالف دعم الشرعية، عرفت حينها أنه لم يكن الرجل العادي بل هو الشيخ رفاعي طه من مؤسسي الجماعة الإسلامية وزعيمها بالخارج لفترة والرافض للمبادرات التي أطلقها قادة الجماعة بالتراجع عن أفكارهم. وحيث إني لا أتمتع بالموهبة الصحفية ولا حتى بالمهارات الاجتماعية الطبيعية ولست ممن يحب الاختلاط ببيئة السياسيين؛ مرَّ اللقاء دون أن أحاول الكلام معه رغم أن رغبتي كانت قد اشتعلت نحو سماع تاريخه وتجربته.

ثم جاء موعد على غير ترتيب ولا تدبير، اقترح عليّ صديق أن أذهب معه لإنهاء إجراء أمني يتعلق بالإقامة في تركيا، وكان الأمر يتطلب سفرا فسافرنا، ثم ونحن في

طريق العودة فوجئنا بالشيخ رفاعي مع الأستاذ إسلام الغمري عائدَين إلى إسطنبول، كانت أمامنا ساعة للحديث في لقاء لم يكن له أن يتم لولا تدبير الله وحده. رأيتها فرصة لفتح موضوع التاريخ وكتابته وتاريخ الحركات الإسلامية، ووجدت لديه اهتماما تاريخيا عاما وأخبرني أنه في مطلع شبابه قرأ البداية والنهاية لابن كثير، وأنه يود لو كُتِبَت سيرة النبي اعتمادا على الأحاديث الصحيحة فقط، فقلت له: قد خرج في الموضوع أكثر من كتاب بالفعل. لم يكن يعلم بها لأنه كان في فترة سجنه الطويلة.

وهكذا سنحت الفرصة لألح عليه في كتابة مذكراته، فحدثني أنه كتب جزءا كبيرا منها بالفعل في السجن. والواقع أني وجدت نفسي أمام شخصية عزيزة المنال، فالقليل جدا من قيادات الحركة الإسلامية من يرون أهمية لكتابة مذكراتهم، وأقل القليل من ينوون كتابتها، وأقل أقل القليل من يشرع بالفعل في الكتابة، وهذا ما يجعل تاريخ الحركات الإسلامية حافلا بالتناقض والاضطراب والغموض بما لا يتناسب بحال مع حجم الحدث وضخامة التجربة.

عرضت عليه من فوري أن أرفع عنه عبء الكتابة، وأن يحدد بيننا موعدا فأسجل له وأستمع إليه، ثم أقوم بعبء التفريغ والتحرير والتدقيق البحثي في التواريخ والأحداث، فرحب للغاية، وهكذا جرى الأمر.

جلست إليه إحدى عشرة مرة، الأولى؛ كانت بغرض التعرف على سيرته موجزة مجملة، والأخيرة؛ أردنا أن نُكمل؛ لكن تشعّب الكلام في هموم الواقع حتى انتهت الساعات، وكانت تلك آخر مرة أراه فيها، فمن بعدها شُغلت عنه وشُغِل عني، حتى فاجأني خبر استشهاده في ليلة لا أنساها.

في تلك الجلسات اقتربت منه بقدر ما يقترب كاتب مذكرات بشيخ لا يعرفه، رأيت

منه تواضعا وبساطة وبشاشة ورحابة صدر، ويكفي أنه استأمنني على كتابة سيرته، وربما غِبْتُ عنه أحيانا فكان يتصل ويتفقدني ويسأل عني، وهو شيء لا يكاد يفعله من كان في سنه ومقامه ومشاغله، وكان قريب الدموع رقيقا، لا يكاد يتذكر أحدا من إخوانه أو موقفا مؤثرا إلا بكى، وكان أكثر ما يُبكيه إذا ذكر زوجته، فقد كان شديد الوفاء لها وكثير الثناء عليها، ويتذكر بتأثر بالغ تضحيتها معه وصبرها عليه.

وكان أول تسجيل بتاريخ 9 أغسطس 2015م، وقبلها كانت جلسة استعراض موجز لكل حياته، وآخر تسجيل كان في الأول من نوفمبر 2015. وبينهما حوارات خاصة أو يشاركنا فيها آخرون يحكي فيها نتفا مما مرَّ به من المواقف.

ونشرت هذه المذكرات على 24 جزءا بمجلة "كلمة حق"، ثم ها هي تصدر مجموعة في هذا الكتيب.

وقد أخبرني الشيخ أنه كتب مذكراته، أو قسما كبيرا منها أثناء كونه في السجن بمصر، ولكن الجهاز الذي سمحوا له به كان منزوعا منه كل إمكانية للاحتفاظ بنسخة منها، فقضى فترة الكتابة مؤملا أن يتوصل إلى طريقة لاستخلاص نسخة منها، لكنه لم يفلح في ذلك، وخرج من السجن، وضاع ما كتبه من مذكراته إلا أن يكون ما يزال موجودا في أضابير الأجهزة الأمنية المصرية.

ولا ريب أن فوات الجزء الباقي من مذكراته، وهو الأهم في تأريخ الحركة الإسلامية المصرية خسارة كبيرة فادحة، إذ ما يزال الإسلاميون يندر فيهم من يكتب مذكراته أو يقدم روايته على الأحداث، مما يجعل تاريخ النضال الإسلامي المعاصر غامضا ومطمورا، ولا يكاد يُعرف إلا إذا أتيحت محاضر التحقيق الأمنية والتي لا ريب أنها لا تحمل الحقيقة كلها، لما يخالطها من وسائل التعذيب والضغوط ونفسية المضطهد.

ويحدونا الأمل أن ينهض رفاق الشيخ رفاعي والمتصلون به إلى تسجيل تجربتهم، وبعضهم يملك الحرية أن يكتب روايته دون ضغوط، وأتذكر هنا مرة كنتُ فيها مع الشيخ رفاعي، والتقينا -قدرا- بأحد رواد الجماعة الإسلامية ممن استطاع أن يلجأ إلى دولة أوروبية منذ قديم، وعرف أني مع الشيخ لتسجيل شهادته، فبادرته بطلب أن يسجل تجربته، فقال لي بأن هذا عمل كبير وينبغي أن تتشكل له لجنة من الجماعة الإسلامية، لتراجع الشهادات وتجمع الروايات وتصدر الصورة الكاملة للتجربة، فقلت له: التأريخ الرسمي هو أكذب رواية للتاريخ، ليكتب كل شاهد روايته كما رآها، واترك عمل الجمع والتحرير للباحثين من داخل الجماعة الإسلامية ومن خارجها. ووافقني الشيخ رفاعي على هذا، وكان هذا مما زادني إعجابا بعقله وطريقته.

رحم الله الشيخ رفاعي طه، ورحم سائر رجال الكفاح الإسلامي الطويل المستمر. وهذه محاولة ضئيلة لكتابة تاريخ لا يُراد له أن يظهر.

محمد إلهامي

شعبان 1441 هـ = إبريل 2020م

موجز سيرة رفاعي طه كما أملاها

في تلك السطور أروي مجمل سيرته رحمه الله كما أملاها عليّ في أول جلسة بيننا، وإن شاء الله تعالى نأخذ في رواية مذكراته التي لم تكتمل بل توقفت عند فترة الثمانينات، عند بداية عمل الجماعة الإسلامية في الساحة المصرية.

وُلِد رفاعي أحمد طه في 24 يونيو 1954، وقتما كانت تعيش الحركة الإسلامية أولى محنها الرهيبة مع النظام العسكري، في قرية نجع دنقل التابعة لمركز أرمنت بمحافظة قنا (في ذلك الوقت) لأبوين من بسطاء الناس، وأبوه من قبيلة الفريحات التي ينتهي نسبها إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وُلِد مصابا بالربو، فكانت تأتيه الأزمة الصدرية بين الفينة والأخرى. وتعلق بالصلاة منذ صغره فكان يحب أن يذهب للمسجد في كل صلاة حتى صلاة الصبح. والتحق بالكتاب في بداية أمره، فحفظ شيئا من القرآن، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية (1961م) وظهر تفوقه فكان الأول على صفه الدراسي؛ وهو التفوق الذي أهّله ليكون ضمن طلائع التنظيم الطليعي التابع لجمال عبد الناصر، فكان من فتيانه ثم صار من شبابه،

وكان كادرا ناصريا يُعقد عليه الأمل.

أفاق من سكرة عبد الناصر يوم وفاته حين لقيه أستاذ له وهو يبكي حزنا عليه، فأخبره بما لم يتوقع من ظلم وبطش عبد الناصر بالمصريين، وبما قام به الجيش المصري من فظائع في اليمن، فبدأ في تكوين صورة أخرى.

بدأ تفكيره في التغيير منذ كان طالبا بالثانوية، حيث أفضى زميل له بأن حكم مصر يُوصل إليه بالانقلاب كما فعل عبد الناصر، وأن الطريق إلى ذلك هو دخول الجيش، رسخت الفكرة في ذهنه، واتفق عليها مع بعض أصدقائه، وتغير تفكيره من دخول كلية الطب إلى دخول الكلية الحربية، ثم وقعت له ظروف أخرى ساقته إلى كلية التجارة.

التحق بالكلية عام (1973م)، وكانت أولى أيامه في الجامعة قد شهدت نشوب حرب أكتوبر التي سمع باندلاعها في اللحظة التي كان خارجا فيها من الجامعة متوجها إلى سكنه، وفي الكلية بدأ النشاط الإسلامي في عهد السبعينات، وتكونت في تلك الفترة بذرة "الجماعة الإسلامية" عبر شباب الجامعة.

تخرج من الجامعة عام (1977م) بينما بقيت معه مادتان من السنة الدراسية، وواصل العمل في تكوين الجماعة الإسلامية والدعوة إليها ونشرها، ووُضِع ضمن قرارات اعتقال السادات عام (1981م) لكنه ظل هاربا حتى وقع في الاعتقال لأول مرة في 16 أكتوبر 1982، وفي السجن أتيح له أن يكمل المادتين العالقتين معه، فلم يتخرج من الجامعة إلا في عام (1983م).

خرج من السجن بعد أربع سنوات في 16 أكتوبر 1986، رغم أن الحكم كان بسجنه

خمس سنوات، إلا أن خطأ وقع في تسجيل تاريخ إيداعه السجن، جعل كأنما ألقي القبض عليه مع الدفعة الأولى من رفاقه، وقد فوجئ هو عبر صديق له رأى اسمه في قائمة من سيُفْرج عنهم، وقد كان هذا تأويل رؤية رآها في السجن، فقد رأى أنه كان جائعا فاشترى خمسة (سندويتشات طعمية)، إلا أنه أكل منها أربعة فقط، فلما قصها على إخوانه أوّلوها له بأنه سيُحكم عليه بكذا لكنه لن يكملها.

خرج إلى السعودية يوم 2 أغسطس 1988، وأمضى هناك شهرين، ثم خرج إلى باكستان في نفس العام وأمضى هنالك ثلاثة أشهر، ثم إلى الإمارات في 16 ديسمبر 1989، وأمضى عشرين يوما في دبي وأبو ظبي، ثم إلى بيشاور (باكستان) في يناير 1990 وظل يتنقل بين باكستان والسودان، ثم عاد إلى السودان (1992م). تلك التنقلات التي كانت محكومة بالظروف التي وُضِعت فيها الجماعة الإسلامية وبقية الحركات الإسلامية أواخر الثمانينات ومطلع التسعينات.

ولما وقعت محاولة اغتيال حسني مبارك في أديس أبابا عاصمة إثيوبيا (25 يونيو 1995)، تصاعدت الضغوط على وجودهم بالسودان، فاضطر إلى الخروج إلى سوريا (أكتوبر 1995م)، وقضى بها خمسة أشهر، ثم انتقل إلى إيران في بدايات 1996 التي وفرت لهم اللجوء السياسي داخل أراضيها.

كانت إيران قد تعاملت مع الجماعة الإسلامية بتوقير وترحيب، ووفرت لهم مفوضا مباشرا للعلاقة بينهم وبين الرئاسة. ووفرت لرفاعي حراسة دائمة حتى في تنقلاته خارج إيران، ولا يفارقه الحارس إلا إذا طلب منه هذا. فكان أسلوبه أن يسافر من إيران إلى سوريا، وهناك يطلب من الحارس أن يتركه، ثم يستعمل جواز سفر سودانيا فيسافر به إلى السودان باسم مختلف، فيقضي ما يشاء ثم يعود إلى سوريا، ويستبدل بالجواز السوداني جوازه الآخر، ويعود إلى إيران.

في ربيع عام 2001، وقع منه خطأ أمني كلفه أحد عشر عاما من الاعتقال، وذلك أنه اتصل من سوريا على أسرته في إيران وأخبرهم أنه يريد من أحد رفاقه بالجماعة الإسلامية التواصل مع السلطات الإيرانية لمنحه تأشيرة العودة حيث كان قد تجاوز وقت التأشيرة، وأخبرهم في هذا الاتصال بعنوان الفندق ورقم الغرفة التي يقيم بها في سوريا. يقول: فما إن أغلقت سماعة الهاتف حتى قلت لنفسي: ما هذا الذي فعلت؟! فهاتف البيت في إيران لا بد أنه مراقب، وأنا الآن قد كشفت عن مكاني بالتفصيل، فانزعجتُ وتضايقتُ وقررت قضاء الليلة عند صديق فلسطيني في مخيم بسوريا، وأفضيت إليه بما حدث، فقرر أن أبيت عنده، وأنه سيرسل شابا من عنده يتصرف ويأخذ الحقائب من الفندق، فيكون الخطر قد انتهى.

وبعد قضاء ليلته عنده عنَّ له أن يعود إلى الفندق، فألح عليه صديقه أن يبقى، لكنه أصر على الذهاب للفندق لترتيب حقائبه بنفسه وأن الأمر لن يستغرق سوى دقائق، حيث كان من أمتعته ما يحب أن يرتبه بنفسه، وفي النهاية عاد إلى الفندق، وما إن دخل إلى غرفته حتى سمع طرقا بعدها بدقائق على باب الغرفة، ففتح فوجد رجلين يقولان إنهما من إدارة الفندق وأنه حدث خطأ في تسجيل الغرفة، يقول: علمت من اللحظة الأولى أنهم من المخابرات وأنني في حكم المعتقل، وبأسلوب لطيف مهذب جرى اقتياده إلى مبنى المخابرات السورية التي تعاملت معه بتهذب لكونه ضيفا على الحكومة الإيرانية، ثم بعد ساعة سلمته إلى جهاز الأمن السوري الذي تعامل معه بعنف شديد وإهانة وتعرض هناك للتعذيب.

وبعد خمسة عشر يوما أُخبر بأنه سيُفرج عنه، إلا أن هذه كانت خدعة، حيث اصطحبوه مقيدا ومعصوب العينين إلى الميناء ووضعوه في سفينة مصرية بعدما أوهموه أنها سفينة سورية ستنقله إلى دولة أخرى، وفي السفينة قام ضباط المخابرات بتمثيلية

هدفت إلى إقناعه أنه كان في سفينة سورية وأن المخابرات المصرية اختطفته منها في عرض البحر، بينما الواقع أنه وُضِع من البداية في سفينة مصرية.

قضى في جهاز الأمن المصري شهورا من التحقيق والتعذيب، ثم أودع السجن حيث كان محكوما عليه بالمؤبد، وظل فيه أحد عشر عاما إلى أن أفرج عنه بعد شهرين من تولي الرئيس مرسي، وبالتحديد في (5 سبتمبر 2012).

ولما وقع الانقلاب العسكري (3 يوليو 2013)، خرج مع عدد من قيادات الجماعة الإسلامية إلى السودان، لكن الحكومة السودانية أبلغتهم أنه لا يمكنها استضافتهم، واقترحت عليهم الخروج إلى مكان آخر، وعرضت أن توفر لهم وثائق للسفر مع فقدهم لوثائق السفر، وكان يرى أن يخرج إلى ليبيا بينما كان بعض رفاقه يرون الخروج إلى تركيا، ثم استقر أمرهم على تركيا مؤقتا، فإن لم يناسبهم الوضع عادوا إلى ليبيا.

سافروا إلى تركيا (سبتمبر 2013م) لكن وقعت مشكلة غير متوقعة كانت نتيجتها أن فقدوا وثائق السفر، فصاروا بلا هويات ولا وثائق سفر، وبقي الشيخ رفاعي طه في تركيا.

كان طبيعيا لمثله أن يتواصل مع الحالة الجهادية في سوريا وأن يتواصلوا معه، حتى جاء صباح (8 إبريل 2016) يحمل خبر استشهاده في قصف جوي بغارة أمريكية مع خمسة آخرين بعد لقاء جرى مع أبي محمد الجولاني قائد جبهة النصرة في محاولة للتوفيق والإصلاح بين الفصائل الشامية وعلى رأسها جبهة النصرة وحركة أحرار الشام.

وبهذا أسدل الستار على حياة الشيخ رفاعي أحمد طه، أحد القادة التاريخيين

للجماعة الإسلامية المصرية، وأحد أبرز الوجوه الجهادية في النصف الثاني من القرن العشرين.

في أعماق الصعيد

الطفولة

وُلدت في 24 يونيو 1954م، في أجواء أزمة الإخوان المسلمين، وكانت أزمتهم بدأت في مارس، أي أنني وُلدت بعد بداية الأزمة بثلاثة أشهر، وكانت قريتى تُدعى نجع دُنْقُل، وكانت قرية صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، وهي تابعة لمركز أرمنت محافظة قنا آنذاك، وأصبحت الآن تابعة لمحافظة الأقصر.

كان والدي من قرية تدعى المراعزة، وكذا أعمامي جميعهم، ونحن ننتمي إلى قبيلة تسمى الفريحات ينتهي نسبها لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. وأما أمي فهي من نجع دنقل من سلالة ينتهي نسبها إلى دنقلا بالسودان، وهي أيضا تنتهي بالنسب إلى قبيلة جعفرية، فيلتقي نسب والدي ووالدتي بالجعافرة سواء جعافرة السودان أو جعافرة مصر، ولست أعرف بالتحديد عند أي جدٍّ يلتقي نسبهما، لكني أتصور أن جدتي لأبي ووالدة جدي لأمي أخوات، لكن لا أعرف نسب الرجال في أي جد يلتقون.

ولدت مريضا

ما أعرفه عن ميلادي هو من رواية أمي، لقد ولدت مريضا بالربو «حساسية الصدر»، وأتذكر أنني في سن الخامسة كانت تنتابني نوبات ربو شديدة جدا، ولم يكن بالقرية شيء من وسائل العلاج أبدا، وقد بلغت مرحلة الموت مرات عديدة، وكانت والدتي -كما روت لي- تعالجني بطريقة خاطئة، كانت أمي امرأة لا تعرف القراءة ولا الكتابة، وكانت تظن أنها إذا جعلت صدري إلى أسفل ورجليّ إلى أعلى أنها تساعدني على التنفس بشكل أفضل، إلا أن هذا كان يزيد من الأزمة لا يعالجها، وهذا الوضع هو وضع مميت لمريض الربو لأن الرئتين يزيد عليهما الضغط، ويتطلب الحجاب الصدري الجلوس أو الوقوف.

أول ما أتذكره بنفسي دون رواية من أحد كان وأنا في سن الرابعة، في ذلك الوقت دفعتني ابنة عمتي «شربات» فوقعت على الأرض، فدخلت في يدي قطعة زجاج، ولما لم يكن في القرية أية وسيلة من وسائل العلاج، فقد جاءت والدتي فنزعت هذه القطعة فتدفق الدم غزيرا من الجرح الغائر، ثم أحرقت بعضا من الورق وبقايا مصاصات القصب فأحرقتها حتى استحالت رمادا، فأخذت من الرماد وكبست به الجرح ليتوقف تدفق الدم. إن خلو قريتنا من أبسط وسائل العلاج كثيرا ما أفضى إلى الموت، وإني أتذكر وفاة خالتي التي كانت في حال الولادة، وكانت أقرب مستشفى على بعد ثلاثة كيلومترات، فوُضِعت على عربة كارو يجرها حمار، وعندما وصلت كانت قد فارقت الحياة. لقد كانت قرية غارقة في الفقر والجهل.

كان جدي عمدة القرية، ومع هذا لم نكن نعرف الكراسي في بيوتنا، كانت الكراسي معدومة إلا في البيوت الكبيرة، أو في دوار العمدة، وأما البيوت فالناس يجلسون على الدِكَك، وهي تقارب «الكنبة» المعروفة اليوم، ولكنها من الخشب، فهي قطعة

خشبية طولها متران وعرضا سبعين سنتيمترا، ولها ظهر يُستَنَد إليه كما لها مُتَّكأ على طرفيها يتكئ عليه الجالس.

ولذا فعندما خُتِنْتُ -وهو ثاني حدث أتذكره بنفسي-أجلسوني على «الماجور»، وهو وعاء كبير تصنع فيه المرأة عجينها، فإذا قُلِب كان بوسع الطفل الجلوس عليه، ثم جاء حلاق القرية، والذي هو في نفس الوقت طبيبها ومعالجها ومسعفها، وهو الذي ختنني، ولم يكن ثمة وسيلة من وسائل التخدير، بل يداعبني فإذا غافلني قطع قطعة من هذه الجلدة التي تغطي الحشفة، فأصرخ صراخا شديدا، ثم يهدئني ويغافلني ثم يقطع قطعة أخرى فأصرخ، وهكذا، حتى تم الأمر بين صراخي الشديد من هذا الألم القاسي. فهذان الموقفان هما ما أتذكرهما بنفسي، وكانا عند الرابعة لأن والدتي كانت تقول بأن عمري أربع سنوات، ولا أتذكر قبل هذه السن أي شيء.

قرية نجع دنقل

عندما كنت في الخامسة أو السادسة بدأت في الذهاب إلى الكُتَّاب، وكان شيخه الشيخ بسطاوي هو من يُحَفِّظنا القرآن، وكان رجلا طيبا وصالحا، ولم يكن لدينا شيء من وسائل الكتابة بل كنا نكتب على الأرض، ثم ظهرت الألواح فيما بعد حين كنت في التاسعة أو العاشرة، كانت من الخشب فكنا نكتب عليها بقلم من البوص أو نحوه يُبَلَّل في الحبر، ثم نمسحها بمادة طينية نسميها «الطَّفْلة»، أما هذه الأقلام فلم تكن معروفة لنا قط، ولعل هذا يُصَوِّر إلى أي حدٍّ كانت الحياة حينذاك شديدة الصعوبة.

في زمن الكتابة على الأرض كان الحفظ يعتمد على السماع فقط، يظل الشيخ يردد الآية حتى تستقر في رأس الطفل، وفي اليوم التالي يقرأ الطفل على الشيخ ما حفظه ثم يسمع الجديد، وهكذا. وفي تلك الفترة حفظت ربع القرآن الأخير من نهايته

حتى سورة يس.

لم أذهب إلى المدرسة الابتدائية، كانت أقرب مدرسة تبعد عن قريتنا بخمسة كيلومترات، ولم يكن من وسيلة للذهاب إليها، وكان أبي وأمي يخافان عليّ أن أذهب وحدي، وأظن أن قريتي كلها لم يكن يذهب منها أحد في سني إلى المدرسة. وهكذا فالكُتَّاب هو المدرسة الوحيدة في القرية، ولهذا فإن أهلها لا يعرفون القراءة والكتابة إلا بصورة بسيطة.

كذلك لم تكن القرية متدينة، كان كبار السن يصلُّون، وكان إلى جوار منزلنا مسجد «أبو الحمد»، وكان فيه تابوت الشيخ «أبو الحمد»، ولهذا الشيخ قصة لعلي أرويها لاحقا في وقتها. وهذا البُعد عن الدين كان سببه الأكبر قطعا الحقبة الناصرية، فلقد كانت شديدة في تغييب الدين ليس فقط عن قريتنا بل عن مصر كلها، ولكني لم أدرك تأثير عبد الناصر على المجتمع المصري إلا وأنا في الثانية عشرة من عمري.

نساء القرية لم يعرفن الشارع غير القليلات منهن، ومن هؤلاء القليلات من كانت تذهب إلى السوق حين لايوجد عائل لها. فقد كان الرجال يقومون بكل شيء، وكان الحمار وسيلة النقل الوحيدة، فمن لديه حمار فهو يذهب يجيء به داخل القرية أو خارجها، وكانت المدينة تبعد عنا ثلاثة أو أربعة كيلومترات، فكان الرجل إذا أراد أن يتسوق أو يشتري ما لا يوجد في القرية يمتطي حماره ويقطع تلك المسافة. كذلك فقد كانت مياه الشرب منعدمة في قريتنا، وكانت النساء يذهبن ليملأن مياه الشرب من ترعة بعيدة على مسافة 2 كيلومتر، كنَّ يعتبرنها نقية، فالعادة حينئذ أن تأتي النساء بالماء لغرض العجين والخبيز، فتلك مسؤوليتهن، ولم يكن في ذلك الوقت أفران مثل اليوم، فلقد كان الخبز يصنع في البيوت، فتحمل النساء الجرَّة وتملؤها من الترعة، والجرَّة تزن نحو الخمسة أو الستة كيلوجرامات من المياه. وأما الطبخ والغسل ونحوه

فكن يستعملن الطُلُمبَّة، وهي مضخة يدوية تُخرج المياه الجوفية، وكانت النساء ترى أن ماء الترعة أعذب وأصفى من المياه الجوفية، ولقد كان منزل جدي كبيرا، فهو عمدة القرية، وكانت فيه طُلُمْبتان.

رفاعي

ما كانت أمي تلد الأطفال إلا ويموتون، ولما تكرر هذا نصحها بعض أهل القرية أن تذهب إلى السادة الرفاعية، وأولئك هم أتباع طريقة صوفية تُعرف بالرفاعية، وظنَّت أمي أنها إن أسمت المولود الجديد رفاعي أو رفاعية فإن هذا ينجيهما من الموت، وهو ما كان فعلا، فلما رُزِقت بأختي الكبرى أسمتها «رفاعية»، ثم لما وُلِدت بعدها أسمتني «رفاعي»، ثم لتختر فيما بعد ما تشاء من الأسماء، وكان لأختي الكبرى اسم آخر هو «عدلية».

عاشت «رفاعية» أو «عدلية» ست سنوات أو سبع، ثم توفيت، وعشت أنا إلى هذا اليوم، وسُمِّيت باسمي هذا «رفاعي»، ثم جاءت بعدي أخت سميت «روحية» إلا أن والدي كان يحب المغنية شادية فأطلق عليها هذا الاسم، فهي في الأوراق الرسمية «روحية» ولكنها في الواقع «شادية»!

في ذلك الوقت كان أبي يعمل تاجر حديد خردة، ويسمى هذا «مقاول حديد خردة»، يجتمع النفر من هؤلاء المقاولين فيشترون الحديد الخردة إما من مخلفات المصانع أو المباني أو ما يجمعه الناس، إذ يمرُّ عليهم صاحب حمار وينادي على من كان لديه حديد يشتريه منه، فكان الناس يبيعونه ما لديهم من مخلفات الحديد كقائم للسرير، فلقد كانت الأَسِرَّة في ذلك الزمن تُصنع من الحديد، أو «الناموسية» التي تظلل سرير العروس، وهي من الحديد أيضا، أو الأواني التي تكون من الحديد أو الألومنيوم، ونحو

هذا. وكان الغالب في عملية البيع والشراء المقايضة، فلقد كان وجود النقود محدودا جدا آنذاك، فيشترى الرجل قطعة الحديد مقابل ثلاث بيضات أو كمية من الغلال والحبوب، أو ربما أتى بأشياء جديدة مثل «شبشب» أو نحوه، وكان مصنع سكر أرمنت بدأ بالعمل حديثا تلك الأيام، فكانوا يأخذون مخلفاته أيضا، وكان أبي يعتبر من أعيان البلد لأن هذه الأشياء كانت ثمينة في ذلك الوقت. ثم في مرحلة لاحقة بلغه أن مركز إدفو التابع لمحافظة أسوان سينشئ مصنعا جديدا، فعزم على الانتقال إلى هناك، لعلمه أن المصانع في بدايتها تخلف كثيرا من كميات الحديد، وهو ما كان، وظل يعمل هناك في موقع نشاطه الجديد إلى أن عزم على نقل الأسرة معه إلى هناك. وكان والدي أول رجل من قريتنا يغترب عنها، وهو اغتراب داخلي بسيط، ومع ذلك فأهل القرية اعتبروها غربة كبيرة فاجتمعوا وأخذوا في البكاء، وهذا إنما هو لانعدام وسائل الاتصال في ذلك الوقت.

لم أعرف الراديو إلا في السنة الخامسة الابتدائية، فقد كنا نزور قريتنا كل سنة أو كل ثمانية أشهر إذ نعود إليها من مكان استقرارنا الجديد في مركز إدفو، وفي تلك الزيارة كان جدي قد اشترى واحدا، وكان جهازا ضخما حينئذ، حوالي 70 سم × 50 سم، ولما رأيته يتكلم سألت جدي باستغراب: ما هذا؟ فقال: هذا راديو، وكان بعض الناس يتصورون أن المذيع قابع بداخل الراديو ويستغربون كيف يُحمل معه، لكن أغلب الناس كانوا يسخرون ويتندرون من هؤلاء، يقولون: ألم تسمع عن الزمان الذي سيتكلم فيه الحديد؟! ها هو قد جاء وتكلم الحديد!

إدفو

لما أقمنا في إدفو، بالتحديد في قرية كوم الأمير التي بها المصنع، ذهبت إلى كُتَّاب الشيخ حسين، وهو الكُتَّاب الثاني في حياتي، كان شيخه حسين أشهب، ثم

حدثت واقعة طريفة كانت طريق دخولي للمدرسة الابتدائية:

قدَّر الله أنّ جارنا في منزلنا بإدفو الأستاذ صادق كان مُعلما بالمدرسة الابتدائية، وكان يعطي الدروس الخصوصية لتلميذين: متولي وعبد الرازق، فكنت أذهب لأحضر معه هذه الدروس بحكم الجيرة، ولم يكن يصرفني ولم يطالبني بأموال أيضا، وأحيانا حين كان يسأل متولي أو عبد الرازق أسئلة كنت أجيبه عنها، وتكرر هذا مني حتى سألني بعد نحو شهر: أين تتعلم فإني لا أراك في المدرسة؟! ولم يكن بالمركز سوى هذه المدرسة التي يدرس فيها، فذكرت له أني أذهب إلى كُتَّاب الشيخ حسين!

فقال: هل تريد الذهاب إلى المدرسة؟

فقلت: لا أدري اسأل والدي.

وحين عاد أبي من عمله بادره الأستاذ صادق فسأله: يا عم أحمد، أي مدرسة يذهب إليها ابنك؟

فقال أبي: المدرسة بعيدة عنا، ولكنه يذهب إلى الكُتَّاب.

فقال: يمكن أن آخذه معي إلى المدرسة.

فقال أبي: يكون لك جزيل الشكر!

وهكذا دخلت إلى المدرسة الابتدائية!

كان الأستاذ صادق يدّرس للصف الثالث الابتدائي، فاصطحبني معه فأجلسني في الصف الثالث مباشرة، ثم أجلسني في مقدمة الفصل، وحين جاءت حصة القراءة قال لي: اقرأ. فلم أعرف، فأخذ يشجعني ويقول: اقرأ. اقرأ، فلم يكن مني إلا أن بكيت، فأخذ يربت عليه ويهدئني، ثم حين جاءت الراحة التي تكون في منتصف اليوم الدراسي،

أخذ بيدي ووضعني في الصف الثاني الابتدائي، وكان يدّرس به الأستاذ محمد عبد الجواد، ولم يكن ثمة مكان فارغ إلا آخر مكان، فأجلسني فيه، ولم يطلب مني القراءة في البداية، ثم بدأ الأطفال بالقراءة واحدا تلو الآخر، فلما جاء دوري كنت قد حفظت النصّ الذي يقرؤونه، فلاحظ الأستاذ أني لا أقرأ ولا أقلب الصحفة، لقد وضعت كل تركيزي في حفظ النص، وهو ما كان، فاقترب مني الأستاذ محمد كأنه معجب بي، وقال: اقرأ صفحة أخرى، فعجزت عن ذلك، فأدرك أنني لا أعرف القراءة ولكنني أحفظ بسرعة، فقال:

- ما اسمك؟
- اسمي رفاعي أحمد طه
- من أين أنت؟
- من أرمنت
- أنت جيد يا رفاعي

وأعطاني صباع طباشير أحمر كمكافأة، وصار يعاملني بلطف، ويعلمني القراءة كل يوم، ويعلمني في وقت الراحة وحدي بعيدا عن بقية التلاميذ، وهكذا بقيت في الصف الثاني ولم أدخل الصف الأول، واستمررت في هذه المدرسة، وكنت دائما صاحب المركز الأول.

ومع هذا فقد استمر انتظامي في الكُتّاب، إذ كنت أذهب إلى المدرسة صباحا وإلى الكُتَّاب عصرًا، وقد طلبت من الشيخ حسين أن أغير موعدي إلى العصر، وكان في الكُتَّاب شاب في الخامسة عشرة من عمره يحفظ القرآن ويُحفِّظ آخرين كذلك، وفي ذلك الوقت عرفنا الألواح الخشبية وعرفنا «الطفلة» التي نمسح بها المكتوب. لقد

كان الفارق بين القريتين كبيرا، ويرجع ذلك بالأساس بسبب المصنع، إذ أنه يستجلب الكفاءات للعمل، مما يعود على ارتفاع مستوى القرية، وكانت المدرسة جميلة نسبيا، وكنت أول مرة أعرف هذا الذي نجلس عليه يسمى «الدُّرْج».

في تلك الفترة كان أكثر الناس تأثيرا فيّ الأستاذان: صادق ومحمد عبد الجواد، كان الأستاذ محمد يحبني كثيرا، ويوليني عناية خاصة، وكنت مستمرا بالحضور في درس الأستاذ صادق مع متولي وعبد الرازق دون أن يطالبني بنقود لفترة طويلة، وكان يعلمني الصلاة، وعلى الرغم من أن الشيخ حسين كان يعلمني القرآن لكنه لم يكن مهتما بهذا الأمر ولم نكن نصلي في الكُتَّاب.

كنتُ الأول.. وتلك أوائلي

أول الدين

بدأت مرحلة التدين حين انتظمت في الذهاب إلى المسجد، كان هذا في السنة الرابعة الابتدائية، كان والدي يصلي الجمعة في المسجد ويأخذني معه، ولا أتذكر أنه اصطحبني في أي صلاة أخرى، وعندما ذهبت أول مرة للمسجد غمرتني السعادة، إذ وجدت كثيرا من الناس يصلون، فتعلقت بالمسجد، فكنت أقول لأبي: سأذهب للصلاة، وأذهب بمفردي، ثم لاحظ الشيخ محمود عسران إمام المسجد أني أصلي وليس معي والدي، فقال لي:

- أنت يا عزّ (واشتهرت في تلك الفترة باسم عزّ) تأتي دائما للصلاة، فلماذا لا تصلي معنا الفجر؟

- وما الفجر؟

- صلاة الصبح، هناك صلاة نصليها عند الصبح اسمها صلاة الفجر.. ألا تصلي الفجر في البيت؟

- لا، أنا أصلي الصبح قبل الذهاب إلى المدرسة.

- ألا تصليها في وقت الظلمة؟
- لا، أصليها عند ذهابي للمدرسة والشمس مشرقة.
- إن صلاة الصبح تكون في الظلام وليس عند الشروق.

فكنت بعدها أريد أن أسهر الليل حتى يؤذن الفجر فأصلي، ولكني نمت وقلت لأمي: أيقظيني في صلاة الفجر، لكنها لم تفعل. ثم استيقظت في الظلام فظننت أن الفجر قد حان وقته، فتوضأت وصليت ركعتين، ثم رويت هذا للشيخ محمود عسران فضحك كثيرا، ووعدني أنه سيمرّ عليّ عند صلاة الفجر ليصطحبني معه، وأوفى بوعده.

لكن أزمة الربو كانت تشتد عليّ، ففي طريقي إلى المسجد أتوقف فأجلس خمس أو ست مرات لشدة الألم، وحاولت أمي أن تقنعني بالصلاة في البيت لسبب المرض، وذات مرة شتمت الشيخ محمود وصاحت به: ألا ترى أنه مريض؟! ولا يستطيع الذهاب. فقال لها: إن هواء الفجر جميل، ولعله يُشفى به، دعيه يصلي لعل الله يشفيه!

وكان الشيخ محمود على معرفة بممرض نصراني اسمه ميلاد، فسأله عن حالتي، فكشف عليّ ثم سألني: من والدك؟ ولما عرف أنه يعمل قريبا من المصنع سألني: لماذا لا يأخذك إلى العيادة الطبية بالمصنع؟ أنا أشتغل هناك، ولعل الطبيب يعالجك، ثم أعطاني حقنة كالسيوم لتخفيف المرض، ولما سألت والدي تعجَّب وقال: فعلا أنا أعرف ميلاد، كيف لم أفكر فيه من قبل؟ ثم أخذني إلى الطبيب وأعطاني نفس تلك الحقن، وكانت تخفف من حالتي وبهذا انتظمت في الصلوات الخمس جميعا.

أول السياسة

كان الشيخ محمود عسران حاصلا على الثانوية الأزهرية، ويعمل كاتبا بالمصنع،

وكلفته إدارة المصنع إلى جوار هذا العمل بمسؤولية المسجد، فكان يعمل كاتبا وإماما للمسجد، كان متدينا بسيطا، لم يكن كثير علم وكانت أكثر خطبته باللغة العامية لا الفصحى، وكان يقول لي: يا بني هذا الملك (فاروق) كان ملكا صالحا، بل لقد كان لقبه «الملك الصالح»، ولكن أولئك العسكر أشاعوا عنه ما يسيء إليه ليدينوه به.

لقد كنت صغيرا لا أدرك معنى ما يقول، ولست أدري الآن ما هي المناسبة التي قال لي فيها هذا الكلام.

أول ما أتذكره من الأمور العامة هي إعدام سيد قطب، كنت في الصف الخامس الابتدائي، وأتذكر أن أمي كانت تدعو على الإخوان وتقول «ربنا ينتقم منكم يا إخوان، انتو عايزين تهدوا السدّ العالي ليه؟»، فعلقت في ذهني كلماتها فسألتها: من هم الإخوان؟ فقالت لي: «شخص يُدعى سيد أعدموه لأنهم يريدون هدم السد العالي، ولكن الرئيس أمسك بهم ونصره الله عليهم». كذلك كانت تقول عنهم «ناس عِفْشين»!

أما ما أتذكره جيدا فهو نكبة 1967، فقبل وقوع الحرب حدثنا مدرس المواد الاجتماعية، وكان اسمه عبد العظيم، بأننا سوف ننتصر في هذه الحرب حتما، يقول: هذا العالم منقسم تحت دولتين: الاتحاد السوفيتي وأمريكا، فنحن سوف نهزم إسرائيل، فإذا ساعدتها أمريكا فسيتدخل الاتحاد السوفيتي ويساعدنا، والاتحاد السوفيتي أقوى من أمريكا، وحين سننتصر سيكون اسم دولتنا «مصر وفلسطين»، فغزة هي جزء من فلسطين ولكن مصر هي التي تحكمها.

قامت الحرب وهُزِمنا، ولم أكن حينئذ أدرك معنى الهزيمة، وأتذكر أن أبي عاد يومذاك حوالي الساعة 12 ظهرا، وكان يبكي بكاء شديدا، وفزعت أمي وصارت تسأله: «مالك فيه ايه؟ مالك؟»، فيقول لها: «اسكتي اسكتي جمال استقال».

ثم أعطونا عطلة وجاءوا بسيارات كبيرة وجمعونا من البيوت لنذهب من قرية كوم الأمير إلى إدفو للتظاهر رفضا لاستقالة جمال عبد الناصر، وهي مظاهرات 9 و10 يونيو. وأذكر أن تلميذا كان إلى جواري وقع على الأرض فمرت عليه السيارة، فسحقت رأسه تماما! لقد رأيت بنفسي رأسه مسحوقة ملتصقة بالأرض، وكان مشهدا لا أنساه أبدا، ولكن الناس صاحوا: فداء لجمال عبد الناصر! فداء لجمال عبد الناصر. ولم تتوقف السيارة!

كان الناس كثيرون في إدفو، كانوا يهتفون «أنور أنور يا سادات.. احنا اخترنا جمال بالذات»، وكان السادات وقتها رئيسا لمجلس الأمة (البرلمان)، وكانت الاستقالة قد قدمها عبد الناصر أمام مجلس الأمة واستخلف فيها زكريا محي الدين، ولم يزل هذا الهتاف محفورا في ذهني، ثم عدنا إلى القرية وأخبرونا في اليوم التالي بأن جمال عبد الناصر قد تراجع عن الاستقالة.

كان الناس في سعادة غامرة لما يأتيهم من أخبار الانتصار وما أسقطناه من الطائرات، ثم فاجأهم خبر الهزيمة والتنحي كالصاعقة، وفي ذلك الوقت لم أكن أدرك كيف انتصرنا أو انهزمنا، ولم أكن أدرك لماذا استقال جمال عبد الناصر ولماذا يطالب الناس بعودته؟ لم أكن أدري كل هذا في هذه المرحلة ولكني أسمعه فقط.

أنهيت المرحلة الابتدائية وكنت الأول على مستوى الصف السادس الابتدائي بالمدرسة، والعشرين على مستوى المحافظة، كانت درجاتي تجعلني في المركز العاشر ولكن المتكرر من المتفوقين أنزلني إلى المركز العشرين، وكانت عادتهم في ذلك الوقت أن يأخذوا المتفوقين إلى «تنظيم البراعم» الملحق بالطلائع، وكانت الطلائع ملحقة بالاتحاد الاشتراكي العربي، فدخلت تنظيم البراعم في الصف الأول الإعدادي وبقيت فيه فترة، فلما انتهت المرحلة الإعدادية دخلت الطلائع وبقيت بها حتى الصف الثالث الثانوي، ثم دخلت منظمة الاتحاد الاشتراكي العربي، وكنت

مسؤول تثقيف وحدة بندر إدفو في المنظمة، وعندما دخلت الجامعة انضممتُ إلى الحزب الشيوعي المصري لفترة، وبقيت فيه طوال فترة السنة الأولى في كلية التجارة، ولمست ظاهرة الفساد الأخلاقي إذ كنت متدينا بطبيعتي، وكنت قد التحقت بطريقة صوفية بعد أن أنهيت المرحلة الإعدادية.

أول المعارضة

أذكر حين كنت في الصف الثالث الإعدادي كان معنا زميل اسمه محمود حسن عبد الرسول، كان في عائلته على ما يبدو أحدُ ممن يفهم السياسة أو أكثر، أو كان متدينا، المهم أن محمود حسن كان يقول لي:

- لا بد أن نغيِّر جمال عبد الناصر، هل تعلم كيف أمسك جمال عبد الناصر بالحكم؟
- كان ضابطا بالجيش وقام بثورة ثم حكم البلد
- يمكننا أن نفعل مثله
- ولماذا نفعل؟ هو رجل جيد
- لا، ليس هو كذلك
- لماذا؟ في الطلائع يعلموننا أنه رجل جيد. وأذكر له بعض الخطب
- لا ليس كذلك.

كان من الواضح أنه متشبع برأي، إلا أنه لا يستطيع التدليل عليه. ولم يكن هو من الإخوان، لكني أتذكر أن أخاه الأكبر كان يملك متجرا للقماش «ماني فاتورة»، وكنت إذا ذهبت أجد عنده أصحابا كُثر يجلسون ولا يشترون، وكان بيتهم في القرية كبيرا ويغلب عليهم التدين، ولعلهم من الإخوان القدامى، والله أعلم. إذ لم تطل صحبتنا،

فقد افترقنا في الصف الثالث الثانوي.

مما أذكره من تلك الأيام أننا انتقلنا من مدرستنا إلى مدرسة أخرى أفضل؛ أنشأها مصنع السكر، كانت مدرسة نموذجية نظيفة وبها فناء واسع على النمط الحديث وبها حديقة، وبالحديقة صوبة لزراعة الورد، وجاءت مُدَرِّسة تدرس لنا مادة «التربية الزراعية»، وكانت ملابسها قصيرة جدا «الميني جيب والميكرو جيب» كما هي عادة أهل المدن في تلك الفترة، وأغلب الظن أنها من الوجه البحري وإنما جاءت في سياق المساكن التابعة لمصنع السكر، وهذه المساكن كانت كبيرة كأنها مدينة سكنية وكنا نسميها «المستعمرة»، وكانت كأنها قطعة من خارج البلد. وذات يوم كانت تعلمنا زراعة الورد، فكانت تميل إلى الأسفل فانكشفت ملابسها الداخلية، فصرخت فيها:

- هذا عيب جدا، لا ينبغي أن تنكشف ملابسك الداخلية

ففزعت واعتدلت وقالت لي:

- ايه يا رفاعي حد يقول للمُدَرِّسة كده؟.. كسفتني (أحرجتني) أمام التلاميذ يا رفاعي!

- هذا لا يصح، هذا عيب جدا.

- هل إذا أتيت إلى المدرسة بملابس طويلة تضحكون عليَّ (تهزؤون وتسخرون مني)؟»

- ولماذا نضحك عليكِ، إن ملابس أمي تصل إلى الأرض.

ثم فيما بعد أخبرتْ ناظرة المدرسة، ونصحتها الناظرة أن ترتدي ملابس طويلة، ثم جاءت الناظرة فحدثتني وقالت «عيب أن تقول هذا للمدرسة»، لكنه كان حديثَ تقديرٍ أكثر منه حديث لوم وعتاب. وهذه الناظرة كان زوجها مأمور مركز إدفو، وكان برتبة

عقيد واسمه عبد المنعم حمودة، وكان لها بنت اسمها عزة، وكانت تمازحني أحيانا وتقول: سأزوجك من عزة!

وكان في المدرسة مدرس للغة الإنجليزية يدعى محمود عبد الرحمن، وهذا الأستاذ من أسباب تأخر اللغة الإنجليزية في المدرسة، فلقد كان يكتب الإنجليزي بالحروف العربية، فمثلا كلمة □□□□ يكتبها «بوك»، ولم أدرك فداحة هذه الطريقة إلا بعد أن كبرت. وكان هذا الأستاذ حريصا على أن يعطيني درسا خصوصيا، وكنت أقول له: إنني متميز ولا أحتاج إلى درس خاص وأنا الأول على المدرسة دائما. فنشأت بيني وبينه ما يشبه العداوة، حتى إنه جاءنا ذات يوم فأخبرنا أنه سيمتحننا غدا في حفظ قصة باللغة الإنجليزية تقع في صفحتين ونصف، وحاول الطلاب أن يعترضوا بضيق الوقت، لكنه أصرَّ وشعرت أنه فخٌ مُعَدٌّ للانتقام مني، وتجنبا لما قد يحدث فقد بذلت جهدي فحفظتها عن ظهر قلب، لكن جاء الغد فلم يمتحنَّا ثم الذي بعده ثم الذي بعده، وكنت أطالبه بأن يختبرنا في القصة فيتجاهلني أو ينهرني بقوله «هذا ليس من شأنك»، فلما جاء اليوم الرابع، فاجأنا بالامتحان، وسأل بقية الطُّلاب قبلي وكانوا قد نسوا ما حفظوه منها، فمن لم يستطع تسميع القصة أبقاه واقفا بانتظار العقاب، حتى إذا وصل إليَّ سمَّعتُها له دون أي خطأ، فقال مغتاظا «يخرب بيت أبوك»، ولم يعاقب أحدا من الطُّلاب، ولو أني أخطأت لكان قد عاقبنا جميعا حتى لا يظهر أنه عاقبني منفردا.

لم أكن أستفيد من حصة هذا الأستاذ، وكان بالمدرسة أستاذة أخرى نصرانية اسمها «نادية» وكانت جيدة، فكنت أنتهز الفرص فأذهب إليها في وقت الراحة لتدرس لي، وكانت تشعر أنني مجتهد، فضبطني هذا الأستاذ يوما معها وهي تشرح لي الدرس الذي كان يشرحه، فوبخني وضربني بالعصا، لكنني أمسكت بالعصا وصحت في وجهه: لن تضربني مرة أخرى، فظهر أننا نتشاجر، ولما شتمني بأبي شتمته بأبيه، ثم حضر

أستاذ آخر فأخبره أني مريض بالربو، وحضرت الأستاذة فوزية ناظرة المدرسة فلامته وهدأتني فقد بدأت أزمة الربو في الظهور.

حضرتُ مرتين حفلات أوائل الطلاب على مستوى المحافظة، ومما أذكره أيضا أنني حين كنت في الصف الثالث الإعدادي خسرنا تلك المسابقة من مسابقات المدارس. وكانت مسابقات المدارس تجري بانتخاب مجموعة من الطلاب يمثلون مدرستهم ثم تُطرح عليهم الأسئلة، فيتميز بعضهم على بعض، وقد نجحنا في أن نحصل على المركز الأول على مستوى أسوان، ثم كان ينبغي أن ننافس على مستوى الجمهورية، لكنني أخطأت في الإجابة عن سؤال «27 رجب» فسارعت بالقول: «ليلة القدر»، اختلط عليّ الأمر بين 27 رجب و27 رمضان، ثم سرعان ما استدركت قائلا: الإسراء والمعراج، لكن الممتحن كان قد سجَّل الإجابة الأولى، وبهذا خسرنا وتفوقت المدرسة المنافسة علينا، خصوصا وقد فازوا علينا في مسابقة الغناء.

أول اليقظة

أتذكر جيدا يوم وفاة جمال عبد الناصر، كان الحزن يخيم على مركز إدفو كله، حتى إن امرأة ألقت بنفسها من الطابق الثالث حين سمعت خبر موته، وخرجنا جميعا من المدارس نبكي بكاء هيستيريا، وكنت أبكي بحرقة!

لقد كان دخولي منظمة الطلائع من أسباب تعلقي الشديد بعبد الناصر، كنت أحفظ خطبه عن ظهر قلب، إذ كنتُ حينئذ قويّ الحفظ سريعه، فلذلك بكيته بكاء شديدا ومُرًّا. وكان الناس يحملون نعشا فارغا يجوبون به الشوارع، كأنهم بجنازتهم الرمزية هذه يشاطرون الجنازة الحقيقية في مصر (أي القاهرة).

مرَّ يوم ثم الثاني في حالة الحزن هذه، ثم قدر الله لي أن أتحول تحولا شديدا، فعند انتهاء الجنازة في مركز إدفو، وكنت حينئذ في إدفو لكون مدرستي الثانوية هناك، صار الناس يعودون إلى بيوتهم، فشاء الله أن مرَّ بي أستاذ التربية الرياضية في المدرسة الإعدادية محمد الشاهد فرآني، وسألني:

- ما بك يا رفاعي لماذا تبكي؟
- هل هذا سؤال؟
- نعم، أسألك لماذا تبكي؟
- أبكي جمال عبد الناصر طبعا.
- لا، أنت لا تبكي جمال عبد الناصر.
- فسألت مندهشا: كيف؟! لماذا لا أبكي جمال؟
- من أين لك أن تعرف جمال عبد الناصر حتى تبكيه؟
- هل يوجد أحد لا يعرف جمال عبد الناصر؟
- إنما رأيتَ الناس تبكي فبكيت، فلا تعاند!
- فانتبهت لهذا المعنى لأول مرة وسألته: إذن ألست حزينا على جمال عبد الناصر؟
- لا لست حزينا
- كيف ذلك؟
- تعال معي وسأشرح لك: لماذا لستُ حزينا عليه.

مضيت مع الأستاذ محمد، وكان من حي السيدة زينب في القاهرة، فقال:

- أنت كنت معي مدة سنتين في المدرسة الاعدادية، وأنا أحبك، فأنت شاب متدين، ولهذا فإني أريد أن أُسِرَّ لك بأشياء لكن لا تخبر بها أحدا. لقد كنتُ ضابطا احتياطيا في حرب اليمن، هل تعلم يا رفاعي أننا كنا نُحَزِّم المساجد بالديناميت ثم نفجِّرها فوق رؤوس الناس أثناء صلاة الجمعة؟! هؤلاء الذين نقتلهم ونفجرهم كانوا مسلمين، هكذا كانت تأتينا الأوامر العسكرية!

- ولماذا تطيعون هذه الأوامر التي تأمر بقتل الناس وهم يصلون الجمعة؟

- لقد أردنا أن نهزم ثورة اليمن، خرجنا من مصر وذهبنا للحرب لأجل هذا الغرض.

- وما ثورة اليمن؟

فحكى لي عن الثورة، وعن عبد الله السلال، والانقلاب الذي تم على الإمام أحمد البدر وأن أحمد البدر كان ملكا صوفيا وشيعيا من الزيدية، وأن جمال عبد الناصر أراد الوقوف مع الضباط لتكون مثل «الثورة في مصر». ثم قال:

«جمال عبد الناصر هذا مجرم، وليس زعيما كما يُقال وكما تسمعون في المدارس، ولا يحب الدين. أنا من الإخوان يا رفاعي وأبي مات في السجن، مات في مذبحة طرة حيث اقتحموا على الناس الزنازين وقتلوهم».

كان في غاية التأثر، مما أثَّر فيّ كثيرا، فسألته:

- معنى هذا أن جمال عبد الناصر سيئ؟

- كلمة «سيئ» لا تكفي للتعبير عنه.

- فكيف يا أستاذ لا تخبرونا بالحقيقة كل هذه الفترة؟

- لا نستطيع أن نقول هذا، وإلا أُلقي بنا في السجون، الآن يمكن أن نقول هذا لأنه مات، أما ما قبل ذلك فلا يمكن.



وهكذا حصلت المفارقة، اليوم الذي كنت أشد ما يكون حزنا على عبد الناصر؛ هو اليوم الذي أمسيت أبغضه أشد ما يكون البغض، انقلب الحب بغضا بنفس الدرجة!

جزى الله هذا الأستاذ محمد الشاهد عني خير الجزاء، كان له عظيم الأثر في أن يتحول مساري كثيرا، لا أقول بأني شهدتُ تحولا جذريا إذ أنني بقيت بعد هذه الصدمة في منظمة الشباب الملحقة بالاتحاد الاشتراكي العربي، وبقيت كذلك في الطريقة الصوفية التي كنت قد انتسبت إليها.. لقد تم تحولي الجذري بالتدريج!

لم أفكر أبدا فيما إن كان كلامه كذبا أو مبالغة، لقد سلَّمت بما قال، كنت أحبه كأستاذ وكانت علاقتي به طيبة، وكان كذلك يحبني ويحترمني ولم يكن يتعامل معي كتلميذ بل كشاب ناضج، وكنت استشعر دفء العلاقة بيننا، كما هي بيني وبين كثير من الأساتذة في المرحلة الإعدادية والثانوية، إذ كانوا يعاملونني كصديق، لذلك لم أفكر في أنه قد يكذب عليّ أو يخدعني، إلا أنني ومن أجل أن أستوعب هذا الكلام اضطررت إلى سؤال أساتذة آخرين، ولم تكن أسئلة مباشرة إنما جاءت عفويا في سياق أحداث أخرى.

بعد هذه الجلسة مع الأستاذ محمد الشاهد ذهبت إلى بيتي ودخلت في بكاء شديد، شعرتُ أننا نُخدَع، وأنه من الضروري أن تتغير هذه الأحوال، وتذكرت ذلك الكلام القديم الذي كان بيني وبين زميل المقعد في المدرسة الإعدادية محمد عبد الرسول حين كان يقول: يجب أن نقيم دولة إسلامية، نفعل مثلما فعل جمال عبد الناصر، ندخل الكلية الحربية، وننفذ انقلابا عليه!

وقتها لم أعطِ هذا الكلام كثير اهتمام، لكن بعد الذي قاله الأستاذ محمد الشاهد صرت أهتم به وأتذكره، لا سيما وأنا في المرحلة الثانوية، أي أنه بالإمكان بعد سنتين

أن أدخل الكلية الحربية ثم ننقلب على عبد الناصر ونقيم الدولة الإسلامية، وبطبيعة الحال لم يكن في ذهني شيء واضح عن طبيعة الدولة الإسلامية، إنما هي أشواق طالب متدين وإن لم يكن لديه علم شرعي. مجرد طالب في الصف الأول الثانوي.

كان مقياس الدولة الإسلامية عندي منحصرا في ثياب النساء والرشوة والمحسوبية، فحينها كانت تلك الأشياء الثلاث شائعة جدا، فلا يمكن أن تقضي حاجة لك دون أن تدفع رشوة، أو يكن لك واسطة. كان تقديري حينذاك أن الدولة الإسلامية ستقضي على هذه الأمور، وقد كنت حينئذ قد حفظت خمسة عشرة جزءا من القرآن من التزامي بالكُتَّاب، وكنت أقرأ كذلك في كتب الحديث، وأتذكر قراءتي في صحيح مسلم.

يرجع الفضل في قراءتي كتب الحديث المختصرة إلى الأستاذ عيد الرافعي، كان مدرسا أول للغة العربية، وكان حافظا لكتاب الله، ولاحظ أنني شاب متدين فكأنه كان يتبناني، وكان لي زميل في المدرسة الثانوية اسمه علي، فكنا أنا وهو نجلس كثيرا إلى الأستاذ عيد الرافعي، وكان يطلب مني تحضير حديث الصباح في الإذاعة المدرسية، ولم تكن حينها إلا ثلاث فقرات: حديث شريف، كلمة قصيرة، نشرة أخبار.

في كل يوم سبت أجهز برنامج الإذاعة، أختار الطالب الذي سيلقي نشرة الأخبار، وأختار الحديث، وأعد الكلمة. كان لدى الأستاذ عيد نسخة من صحيح مسلم، وكان يعطيني منها بعض الأحاديث لأحفظها، أو يُحفظني إياها أحيانا، وربما طلب إليّ أن أختار حديثا ثم أقرؤه عليه كي يصحح لي فلا أُخطئ فيه، ومن هنا صارت لدي ثروة أحاديث في مرحلة يمكن فيها أن أتفكر وأتدبر ويتشكل عندي من حصيلتها رؤية وأفكار.

أول الخوف

ذات يوم وقعت عيني على الحكمة القائلة: «سُئل فرعون: من فرعنك؟ قال: حين لم أجد من يردني ويصدني»، فأعجبتني للغاية فوضعتها من فوري على مجلة حائط المدرسة. وفي اليوم التالي اخترت لحديث الصباح حديثا لم أكن أفهم إلا نصفه فقط، ولم يكن الأستاذ عيد يعلم أني سأقوله، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخث المائلة.. الحديث». كنت أفهم النصف الذي ينهى عن التبرج لكن لم افهم نصفه الأول، وقد كان غرضي من إلقائه هو مسألة التبرج، حيث كانت كل نساء المدرسة متبرجات.

غير أن كلامي أصاب منهن واحدة بعينها دون أن أقصد.. تلك هي: الأستاذة إكرام.

كانت إكرام مدرسة الدراسات الاجتماعية لصفنا «الأول الثانوي»! وكانت مغرقة في التبرج، والأهم من ذلك أنها كانت زوجة ضابط مباحث قسم الشرطة في المركز، فإذا بها تُنْزل كلامي على نفسها، وتحسب أنها المقصودة به.

ومن عجائب اليوم أن حصتها علينا كانت في نفس اليوم وشهدت اشتباكا بيننا لم أقصده ولم يخطر ببالي أيضا، لقد قالت في أثناء الشرح بأن اللغة العربية هي المسؤولة عن نشر الإسلام في الوطن العربي، فلفت نظري ما تقول، ولم أكن قرأت شيئا في الموضوع من قبل، لكن وجدتني أرد عليها قائلا:

- أعتقد يا أستاذة أن الإسلام هو سبب نشر اللغة العربية وليس العكس فالعرب أنفسهم لم يكونوا معروفين قبل الإسلام.

- من قال لك هذا الكلام؟

- لم يقله لي أحد، ولكن هذا ما أفهمه.

ظلت تجادلني وأجادلها في الموضوع، فتأكد لديها أنني أتقصدها وأشاكسها، ومن ثم ترسخ عندها أني أقصدها بالحديث الذي ألقيته عن التبرج صباح اليوم. ثم لا أدري إن كانت هي أم غيرها من ربط هذا بالحكمة التي كتبتها في مجلة الحائط عن الفرعون الذي لم يجد من يرده ولا من يقومه. في اليوم التالي وجدتني مطلوبا لأمن الدولة!!

حضر إلى المدرسة المخبر سيد وقال لي «عايزينك في كوم أمبو»، حيث مقر أمن الدولة إذ لم يكن لهم مقر في مركز إدفو، فتفجر في صدري خوف شديد، لماذا أنا؟ ماذا فعلت؟ وما الذي حصل؟ ثم إني ذهبت. ذهبت وحدي، فقد كان أبي -رحمه الله رحمة واسعة-يتخوف من تلك الأشياء.

تركوني أربع ساعات منتظرا، وتلك فترة طويلة، طويلة على المنْتَظِر، وهي أطول منها على المنتظر الخائف المترقب، وهي أطول وأطول إن كان هذا غلام يافع صغير لم يخبر من الدنيا مخوفاتها! ثم أدخلوني إلى التحقيق:

- من قال لك حديث فرعون الذي كان على مجلة الحائط؟ وماذا تقصد به؟

- لا أتذكر أين قرأته ولكنه أعجبني.

- وماذا تقصد به؟

- لم أقصد به شيئا معينا، فقط أعجبتني الفكرة: الحاكم إذا لم يعترض عليه أحد يكون فرعونا.

- كيف تعرف أنت هذه الأمور؟ من قال لك هذا الكلام؟

- لا تحتاج إلى من يعرفني، أي حاكم إذا لم نعترض عليه يكون مثل فرعون! (كنت خائفا، لكني كنت أتماسك وأكابر).

- وحديث النساء العاريات؟!

- هذا حديث عن البنات التي تمشي متبرجة في الشارع، وسبحان الله، لقد وصف النبي حالهن تماما كأنه معنا الآن!

- هل قصدت به أستاذة إكرام زوجة ضابط المباحث؟! أنت لا تحترم أستاذتك، ولا تحترم الرجل الذي يجتهد لحماية البلد. ضباط المباحث يقاومون الجريمة ويحمون البلد من السرقة.

- لم أقصد هذا المعنى أبدا. لكن الحقيقة أنك الآن شرحت لي النصف الذي لم أفهمه من الحديث، سبحان الله! حقا ضباط المباحث هم كما وصف النبي بيدهم سياط كأذناب البقر ويضربون بها الناس!!

شعر الضابط من التحقيق أنني أتكلم من تلقاء نفسي، وأنه ليس ثمة أحد يؤثر عليّ أو يوجهني، وأنني غير مندرج في أي نشاط جماعي أو ما شابه. كنت أتحدث معه ببراءة الغلام الذي يتعرف على الحياة ويستقبلها بفطرته السليمة، ويتفهم ما فيها من المعاني والأحداث بنفسه رويدا رويدا. عندما أيقن من هذا قال لي: أنت طيب يا رفاعي، وهذا رقم هاتفي، وإذا أردت أي شيء اتصل بي.

رجعت إلى البيت، ولم أهتم بما قال، لكن المهم أن الخوف المهيمن على أجواء الأسرة انقشع حين وصلتُ، وبدأ يتسرب إليها من جديد الشعور بالأمان.

صباح اليوم التالي في المدرسة أقبل عليّ الناظر فسألني: ماذا فعلوا معك بالأمس؟

فقصصت عليه ما كان، فقال لي: يا بني أنت متفوق، وأنت ابننا، ونحن نحبك، لا تُدخل نفسك في مثل هذه الأمور. فقلت له: لم يحدث شيء، فقط سألوني من أين جئت بهذا الحديث وأجبته وانتهى الأمر. ولقد كان اللافت للنظر أن الأستاذ عيد الرافعي لم يمنعني من الحديث في الإذاعة.

أول الحركة

في المدرسة الثانوية شكلت مجموعة من الطلاب، كنا أحد عشر طالبا وكنت زعيمهم رغم أني في الصف الأول الثانوي وبينهم من هو في الصف الثاني والثالث الثانوي، فكنت أجمعهم في وقت الراحة بين الحصص الدراسية ونجلس في المسجد لنقرأ ما نجده مفيدا من كتب في مكتبة المدرسة: رياض الصالحين، وأتذكر كتابا أعجبني للغاية وقتها هو «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشيهي، فكنت أقرأ منه على المجموعة. لكن الغرض الخفي الذي جَمَعَنا واتفقنا عليه هو أننا سندخل الكلية العسكرية لنكون ضباطا في الجيش، وننفذ انقلابا عسكريا نقيم به الدولة الإسلامية المنشودة.

لم يعرف أحد نيتنا هذه، لكن الأستاذ عيد الرافعي خشي علينا من مجرد الاجتماع والقراءة في كتب دينية، فأرسل إليّ ابنه علي أن أذهب إليه ببيته، وقال لي بأني أعرض نفسي للمشكلات بمثل هذه الطريقة، واقترح إنقاذا للموقف أن يتقدم هو بصفته مدرس اللغة العربية للمدرسة لتحويل تلك المجموعة إلى «أسرة مدرسية» يكون هو مقررها، واقترح أن نسميها «مجموعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فهكذا يُسبغ على المجموعة صفة شرعية رسمية وتكون مندرجة ضمن نظام الأسر المدرسية بإشراف مدرس وبإذن الناظر، ورحبت لا شك بالفكرة والاقتراح الذي لم يخطر لي على بال، ولم أطلعه على غرضنا منها بدخول الكلية الحربية. وهكذا صار لنا

غرض معلن وهو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل المدرسة».

عند نهاية الصف الأول الثانوي كان مدرس اللغة العربية في مدرستنا، واسمه «جمعة»، قد كلفنا بكتابة موضوع تعبير عن «دولة العلم والإيمان»، لقد جاء السادات بهذا الشعار في أول عهده، وكتبتُ موضوعا أهاجم فيه السادات، قلت فيه: إن السادات ينافق الشعب، وشعار «دولة العلم والإيمان» مجرد كلام خال من المضمون، فليس في البلد لا علم ولا إيمان.

تفاجأ الأستاذ جمعة حين قرأ موضوع التعبير هذا، وكان يقرؤه على بقية الطلاب، ثم هرع إلى الأستاذ عيد الرافعي فعرض عليه ما كتبت، ونصحه أن يتكلم معي لينصحني ألا اتهور كي لا أتعرض للسجن أو شيء من هذا، وجاء إليّ الأستاذ عيد فحمل لي مع نصيحته قصة أخرى كان يخفيها في طيات ذاكرته.

حدثني أنه حين أُعْدِم سيد قطب (1966م) كان هو في مقديشيو (عاصمة الصومال)، وما إن سمع في الإذاعة خبر إعدامه حتى هرع إلى النسخة التي كانت معه من كتاب «معالم في الطريق» فأحرقها فورا. أحرقها في الصومال من شدة الخوف والبطش. وختم قصته بالنصيحة: «يا بني، الجدار له آذان! ولا يغرنك أن عبد الناصر مات فنحن لا نزال في دولة الخوف».

تداعى إلى ذهني كلام الأستاذ محمد الشاهد، ها هو نفس الكلام يتكرر، كأنما وجدتها فرصة لأستبين وأستوثق من الصدمة، سألته:

- هل تعني أن عهد جمال عبد الناصر كان فيه بطش وظلم؟

- بالطبع يا بني، لقد كنا نخشى الحديث حتى مع زوجاتنا في البيوت، كان الواحد يتجسس على أبيه وزوجته وأخيه وأخته. كل الناس كانوا يتجسسون، أنا لم

أكن أضمن ولا أجرؤ أن أقول شيئا في بيتنا!

وطفق يحدثني عن العهد البوليسي الذي لم يأمن فيه أحد على نفسه، وأن الله قد رفع عن الشعب عبئا ثقيلا بموت عبد الناصر، وأنه يمكن حقا أن يكون السادات صادقا في شعاره «دولة العلم والإيمان» فما يظهر منه يدل على هذا، على الأقل صار المرء يستطيع أن يتكلم ويتنفس، وأخبرني في لهجة المتأثر: لو كنتَ كتبتَ موضوع تعبيرك هذا في عهد عبد الناصر لما كان أحد ليراك ثانية. وعند تلك العبارة أخذ في البكاء.

عند تلك اللحظة اجتمعت عندي الروايات، رواية الرجل البسيط: الشيخ محمود عسران، مع الأستاذ محمد الشاهد، مع الأستاذ عيد الرافعي.

لعلك لم تنس -أيها القارئ- ما كان حديث الشيخ عسران عن الملك فاروق وأن الناس لقبوه بـ «الملك الصالح»، وإنما العسكر شوهوا صورته حتى يُقال للناس كان فاسدا ونحن أفضل منه. لقد كان حديث الشيخ عسران حديث المتوجس الخائف، يحوم حول المعنى لا يريد أن يصرح به، لكن الصريح الواضح هي لهجته ومشاعره المُنْكِرة المستنكرة للعسكر وأفعالهم. أما أصرح الجميع فقد كان محمد الشاهد.

وليس من شك في أن حقبة عبد الناصر كانت سوداء قاتمة خصوصا على أهل العلم والفكر والمبدعين، إلا أن كثيرا من الشعب المصري لم يشعر بهذا لقوة الضغط الإعلامي وبريق الشعارات المرفوعة التي تعلن الانحياز للفقراء. ولقد استفاد كثير من الفلاحين والعمال في فترة جمال عبد الناصر، لا سيما من قانون الإصلاح الزراعي، فبعد أن كان هؤلاء من المعدمين أصبح لديهم فدادين من الأرض الزراعية فكانت نقلة لهم، صحيحٌ أنه لم ينقلهم إلى مرحلة الرفاهية كما حدث في عهد السادات لكنهم

استفادوا على الأقل: صاروا ملاكا من بعد ما كانوا أُجَراء!

وهكذا.. بدأت الحكاية بموضوع تعبير وانتهت إلى رسوخ فكرة سطوة وبطش وظلم عبد الناصر في عقلي وقلبي.

جاءت الذكرى الأولى لوفاة عبد الناصر (28 سبتمبر 1971م)، كنت في بداية الصف الثاني الثانوي، وكانت المدارس تبدأ في أول سبتمبر أو في منتصفه، وأقيم في المدرسة حفل تأبين لعبد الناصر استمرت لأسبوع! فظل الطلاب والأساتذة يتبارون في مديح عبد الناصر وتمجيده في كلماتهم وخطبهم. لم يكن السادات قد كشر عن أنيابه بعد لجمال عبد الناصر، كانت السياسة لا تزال تخطب وده وود إرثه.

أزعم أني من أوائل من هاجموا جمال عبد الناصر، لقد بدأ حفل التأبين والتمجيد يوم الإثنين فيما أذكر، وكان الترتيب يضع كلمتي يوم السبت، فجاءني الأستاذ عيد الرافعي وقال: اكتب الكلمة التي ستلقيها واعرضها عليّ أولا. قلت له: يا أستاذ عيد، إني سأرتجل الخطبة كعادتي، أشعر بالخجل إن قرأتُ كلمتي من ورقة، وأنت أستاذي وقد عودتني الثقة بالنفس، ولن تسمع مني إلا ما يسرك.

لم تطمئنه كلماتي تلك، فلما جاء يوم السبت، وقف -دون أن أدري- من خلفي، وكان -كما أخبرني فيما بعد زميلي سيد محمود عبد الرحمن- قلقا ومضطربا، يحرك رجلا ويضع أخرى.

تقدمت خطيبا فقلت:

«الحمد لله وكفى، وأصلي وأسلم على عباده الذين اصطفى، أما بعد: فقد تقدم

كثيرون وامتدحوا جمال عبد الناصر، لكن لي رأي آخر. نحن كشباب وكأبناء هذه البلاد بل وكأبناء لهذه الثورة، فكلنا وُلِد بعد 1952، وأنا قد وُلِدت 1954 وترعرت في ظل حكم جمال عبد الناصر، وأنا مسؤول تثقيف وحدة بندر إدفو لمنظمة الاتحاد الاشتراكي العربي التابعة للاتحاد الاشتراكي، ومع ذلك يؤسفني أن أقول: كل هذا كذب.. كذب وافتراء! لقد مجَّدنا رجلا صنما...»

عندها انتفض الأستاذ عيد الرافعي واختطف مني الميكروفون، وصاح: «ابننا رفاعي لا يقصد هذا، لكن خانه التعبير.. هو قصد أن جمال عبد الناصر معبود الجماهير فكل الناس تحبه، ولا يعني أنه صنم بمعنى الصنم...».

انتهى الطابور، واستدعاني الناظر إلى مكتبه، «يا ابني انت مش عايز تجيبها البَرّ (لا تريد أن ينتهي الأمر على خير)، ويبدو أنك لن ترتاح إلا حين تُفصل من المدرسة. لم تنتهِ كلمتُك إلا واتصل بي جهاز الأمن يريدونك أن تذهب إليهم. من أين تأتي بهذا الكلام؟ نحن لا نقوله هنا. وإذا سألوك فقل لهم إنك لم تسمعه من أحد هنا. انت ولد طيب و«غلبان». وأبوك رجل «غلبان». انت كده بتودي نفسك في داهية (تلقي بنفسك إلى الداهية). وهتودينا معاك كلنا في داهية. والمفترض بي الآن أن أصدر قرار فصلك من المدرسة»!

ظل الأستاذ عيد الرافعي يترجاه ويتوسل إليه ألا يتخذ قرار الفصل من المدرسه، طفق يقول: اعذره يا حضرة الناظر، إنه ابننا، مثل ابني علي، ومثل ابنك. ورفاعي متفوق، ولا نريد أن يضيع مستقبله... إلخ!. كان موقف الأستاذ رفاعي أبويا وصادقا، وكان من رجاءاته أن يؤجل أمر الفصل إلى حين نرى ما سيصنع في أمن الدولة، فلربما الأمر لن يستدعي.

ولم تنته الحصة الأولى حتى كان بالمدرسة اثنان من المخبرين قد حضروا ليأخذوني إلى أمن الدولة. هذه المرة لم أكن وحدي، بل كنت مصحوبا بمخبر، ولما دخلت إلى المحقق، سألني:

- ماذا تقصد بأن جمال عبد الناصر كان صنما؟ ومن قال لك هذا التعبير؟

- لم يخبرني أحد، أنا أرى كل الناس تمدح عبد الناصر ولهذا أستشعر أنه صنم، وأنا عضو في منظمة الشباب الاشتراكي، ومسؤول تثقيف مركز إدفو

- «يخرب بيتك، يخرب بيتك ما احنا عارفين»

- فقط أسمع المديح المديح المديح لعبد الناصر، لا يوجد أي شخص يقول شيئا آخر. ألا يخطئ عبد الناصر أبدا؟ بالتأكيد لقد أخطأ يوما

- أخطأ في ماذا مثلا؟

- لا أدري. أنا لا زلت صغيرا ولا أستطيع أن أعرف فيما أخطأ، لكنه أخطأ بالتأكيد!

- أنت يا رفاعي شاب متميز، وتفكر، وتسأل، وأنا واثق أنه لم يخبرك أحد شيئا سيئا عن عبد الناصر، ومن الحسن أن تسأل مثل هذا السؤال.

- فما تريدون مني الآن؟

- لا نريد منك شيئا، فقط نريدك أن تحافظ على نفسك، أنت شاب جيد، ونحن نحب من هم مثلك من الشباب، وأنا قرأت ملفك، وعرفتُ أن زميلي قد أوصى بك، وترك لك رقم هاتفه. وها هو أيضا رقم هاتفي، كلمني إن احتجت إلى أي شيء، فأنت أخونا الصغير... إلخ!

كان أهم ما يريدون معرفته هو «ماذا تقصد»؟ و«من قال لك هذا»، ولما تبينوا

أنه ليس ثمة أحد يلقنني هذا الكلام استهانوا بالأمر. إلا أن هذه المقابلة أذهبت من نفسي الرهبة منهم، فمن بعد ما كنتُ خائفا ارتحت واطمأننت، لقد تصورت أني سأدخل كهف العذاب الجهنمي من رؤيتي لوجه الناظر وفزع الأستاذ عيد، رغم أني لما تحدثت مع المحقق كنت أتحدث بثقة أفضل مما توقعت. إلا أن أهم ما خرجت به من تلك المقابلة أن النظام في مصر صار يتسامح مع مثل ما أقول، أو حتى: يرحب بأن تنتشر هذه المقولات التي تخدم استراتيجية السادات، وقد تبناها فعلا فيما بعد.

أما البيت فهيمن على أجوائه خوف أشد من خوف المرة الأولى. إن أبي -رحمه الله- رجل أمي بسيط، يقرأ ويكتب بصعوبة، وأمي من جهتها أمية، وهما كما هو حال الشعب المصري في تلك الفترة يخافون جدا من التعرض لكل ما هو من شأن السلطة والدولة، كان أبي يقول لي: إن لم تكن تخشى على نفسك فاخش عليَّ، إني أريد أن أُرَبِّي إخوتك كما ربيتُك!

كان كلامه يعكس الخوف الشديد، إلا أنني لم أكن أتأثر بهذا إطلاقا، كان يملك عليّ نفسي أني على الحق وعلى الطريق الصحيح، وحيث إن الأمر كذلك فلا اعتبار لكل ما ألقى في سبيله، سواء في ذلك التهديدات أو الرجاءات!

وأبعد من ذلك أني في هذه المرحلة لم أكن أشرك أحدا في تفكيري إطلاقا، نعم.. أتحدث مع الأستاذ عيد الرافعي، وفي مرحلة لاحقة دخل على الخط أستاذ آخر اسمه سيد، وكان يدرس لنا اللغة العربية وكان صوفيا، وكذلك أستاذ آخر هو جمعة أبو زلازل. كل هؤلاء كانوا يجلسون ويتحدثون معي، وكنت أستفيد منهم علميا وشرعيا، إلا أنني لا أطلعهم على أفكاري ولا أحكي لهم مقصد جميعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كنت أستشعر أن هذا عمل عظيم وأني أتفرد به، كنت أرى نفسي كمن يطوي جوانجه على السر الكبير الخطير، كأنما أنا زعيم الثورة المرتقب، مثلي مثل جمال عبد الناصر!

لقد سيطرت عليَّ فكرة أنني سأصنع شيئا، بل شعرت أحيانا أني قد أصبحت قريبا جدا من أكون رئيس مصر.. إنها خمر المراهقة التي تقرب الأحلام البعيدة من الأفق البعيد فتجعلها كأنها في متناول اليد وأنه ليس بيننا وبينها إلا هذه الخطوة.. وما تلك الخطوة؟ أني سأدخل الكلية العسكرية، ثم أنفذ انقلابا.. وهكذا أصير رئيس مصر، أرأيت إلى المسألة كيف هي يسيرة؟!

أول اللقاء بالاتجاهات الإسلامية

لا أتذكر أحداثا أخرى مهمة في هذه السنة، الصف الثاني الثانوي، لكن هذه السنة شهدت إقبالي على المكتبة وكثرة القراءة فيها، وكان الأستاذ عبده قد دخل إلى عالمي. وكان صوفيا!

قبل ذلك بعام، كان خط آخر قد بدأ في حياتي.. ذلك هو خط الصوفية.

لقد كان أساتذة المدرسة متصوفة، لكنهم لم يكونوا ينتمون إلى طريقة بعينها، أما أنا ففي الصف الأول الثانوي التحقت بالطريقة الأحمدية النقشبندية. وقصة ذلك أن لدينا جارا يعمل في مصنع إدفو للسكر، اسمه محمد، وكان يراني شابا متدينا أغدو إلى المسجد وأروح، فدعاني ذات يوم للذهاب معه إلى الزاوية، لم أمانع، ومن ساعتها كثر ترددي إلى هذه الزاوية.

عرفت هناك أن طريقتهم هي الأحمدية النقشبندية، أو لعلها الأحمدية الشاذلية، لقد نسيت وتطاول العهد بهذا، وعلى كل حال دعاني جارنا هذا إلى الانضمام للطريقة على أن أكون «مريدا ثانيا»، لقد كان لديهم مراتب ودرجات، وكان المريد الأكبر عندهم شيخ اسمه الزرقاني.

لم يكن عندهم علم بالشرع، وتصدق فيها الانتقادات التي توجه للصوفية، كنا في تلك الزاوية نحفظ أحاديث بسيطة جدا، وكذلك في حفظ القرآن، ولقد رأيتني أحفظ أكثر منهم، فلربما كانوا يحفظون في جز عم، بينما أنا في الجزء الخامس، وفي تلك الفترة كنت قد وصلت في حفظ القرآن إلى سورة الإسراء إلا أني نسيته لأني لم أكن أداوم على المراجعة، إلا أن هذا لم يخفض قدري بين أقراني أيضا إذ كنت أحسن منهم حفظا وكذلك استحضارا للآيات، فإذا فُتِح باب نقاش أو أردت فتح كلام فإن الآيات المتعلقة به تكون حاضرة في ذهني، والشاهد أنني كنت بين هؤلاء القوم من المنسبين لهذه الطريقة أحسنهم، فكنت أقرأ لهم القرآن، فإن غمض عليهم شيء شرحته وفسرته لهم، وما هو إلا أن بدأت في النقد والنقاش، أو قل: الجدال واللجاجة.. وهذا شيء لا تحبه الصوفية!!

لا أتذكر الآن هل كنا نلتقي في تلك الزاوية مرة كل أسبوع أو مرتين في الأسبوع الواحد، لكن الذي تنبغي الإشارة إليه هنا هو انتشار فكرة الحلول والاتحاد فيما بينهم. لم يكونوا ينشرون هذه الفكرة من خلال الدروس، وإنما هي منتشرة في حكاياتهم.

أذكر مرة أنه قد حُكِي أمامي أن رجلا قد سأل شيخه معترضا على كيفية الخلق، وكيف أن الله (سبحانه وتعالى) يخلق بعض الخلق متشابهين مع كثرتهم وتعددهم، فقال الشيخ: تعال عندي اليوم بعد العصر لنشرب الشاي معا. فحضر المريد في الموعد المضروب، فلما جلس بين يديه طرق الباب، فأمره الشيخ أن يفتح، فذهب ففتح فوجد نفس الشيخ أمامه، فصار يقلب بصره مندهشا بين شيخ جالس في الدار وشبيهه الواقف على الباب، ثم ألجمته الدهشة حتى دخل الذي بالباب، وما إن جلس بين يدي الشيخ حتى طرق الباب مرة أخرى، فأمره أن يفتح، فذهب ففتح فتكررت القصة حتى دخل الدار أربعون رجلا على نفس هيئة الشيخ الجالس في الدار. فهنا قال الشيخ

لمريده صاحب السؤال: كنت قد سألتني سؤالا في الحلقة وأنا أريد أن أجيبك عليه. فقال المريد له «لقد أجبت. لقد أجبت. لقد أجبت»، وهكذا أعطاه الشيخ درسا عمليا وأدّبه تأديبا قويا وعلّمه ألا يسأل مثل هذه الأسئلة، فإن كان الشيخ الولي يستطيع أن يخلق أربعين نفسا على صورته فكيف بالله الواحد القهار!!

ما إن سمعتُ هذه القصة حتى غضبت غضبا شديدا وانطلقت صائحا: هذه القصة لا يمكن أن تكون صحيحة، هي بلا شك كذب!

واندهش الشيخ من جرأتي وصاح بدوره: كيف تقول؟! هل تعني أنني كاذب؟

فقلت له وما زلت في غضبي: لا أدري هل أنت الكاذب أم غيرك، لعلك نقلتها من كتب ليست صحيحة، لكن اليقين أن هذه القصة كذب لا يمكن أن تصح. حتى ولو افترضنا أن هذا الشيخ قد استعمل قوة الجن وسخرهم لنفسه، فلن يمكن للجن أن يفعلوا هذا، تلك القصة في حكم المستحيل!

كانت القصة في حكم المستحيل. وكانت غضبتي هي الفراق بيني وبينهم! قررت ساعتها -وكنت في الصف الثالث الثانوي- ألا أذهب إليهم مرة أخرى.

ومع هذا لم تنقطع علاقتي كلية بالصوفية، لقد كنت أعود في أسئلتي وفي مثل هذه الأمور إلى أساتذتي في المدرسة، لقد كانوا مع تصوفهم أكثر ثقافة ونضجا من هؤلاء البسطاء، لا سيما الأستاذ عبده، لكم كان مثقفا حقا، وكان شديد التدين مشهورا به في مركز إدفو، وكان له شيخ أكبر منه يعمل مفتشا للغة العربية وقد بلغ سن المعاش، وكان هذا الشيخ أكثر تدينا منه وأشهر، ولقد كانت لي قصة معه لعلي أذكرها إن شاء الله.

أول الثورة

لكن أعود الآن إلى خط الدراسة.. فقد كانت هذه الزيارة الأخيرة لأمن الدولة قد تركت أثرها عليّ، لقد صار يُنظَر إليّ في المدرسة نظرة غير المرغوب فيه من الكثيرين، وقد أضيف إلى هذا أن المباحث العامة في مركز إدفو قد وضعت أعينها عليّ، وذلك أن ضابط المباحث في ذلك الحين كان هو زوج المُدَرِّسة «إكرام» التي ذكرتُ ما وقع بيني وبينها سابقا حين ذكرت في الإذاعة حديث «صنفان من أهل النار لم أرهما» فأُبْلِغ في أمن الدولة أني أُعَرِّض بها، وذلك الضابط في أمن الدولة الذي فهمت منه نصف الحديث الثاني، كان هو نفسه قد جاء إلى المدرسة وتحدث معي أكثر من مرة.

لست أتذكر الآن ما إن كان مجيئه هذا قبل أم بعد الاستدعاء الثاني لأمن الدولة، وأغلب الظن أن ذلك كان بعدها، لكنه جلس معي ثلاث مرات أو أربع، كانت واحدة منها بسبب يعود أيضا إلى زوجة ضابط المباحث: إكرام.

كان الطلاب يلجؤون إليّ لشهرتي بينهم لتفوقي ولطبيعة شخصيتي القيادية، ويتجاوزون رئيس اتحاد الطلاب نفسه، فإن كان ثمة شيء يطلبونه من المدرسة كنتُ أتولى الكلام فيه مع المدير والناظر، فإن استجابت إدارة المدرسة فبها ونعمت، وإلا حوَّلتُ طاقتي إلى تحريض الطلاب عليهم، وكنت أُحْسِن هذا.

وقعت الأزمة لأن هذه المُدَرِّسة كانت شديدة التبرج ومثيرة، وكان معنا في الفصل طالب تكرر رسوبه في الثانوية العامة حتى كان سنه أكبر منا جميعا، فلربما كان في العشرين من عمره، أي أنه قريب من عُمْر المُدَرِّسة نفسها، وكانت عيون المراهقين تنهب هذا التبرج حتى كان ذات يوم ألقى فيه هذا الطالب عليها خلسة قطعة من الطباشير، يمكن أن نعتبر هذا نوعا من التحرش أو نوعا من الإهانة والتحدي والمعاقبة

أو كل ذلك معا، وكانت ردة فعلها بطبيعة الحال ساخطة، إذ صاحت فينا: من الذي فعل هذا؟! فلم يرد أحد.. ويمكن أن نعتبر هذا خوفا من الطالب الكبير السن أو شهامة ومروءة كالتي يرى الطلاب أنها من الرجولة تجاه بعضهم ضد المدرسين (الذين يُمَثِّلون السلطة داخل الفصول، بينما الطلاب هم ممثلوا الشعب والجماهيرا)، وظلت تصيح بإصرار تريد معرفة الفاعل، وظل الطلاب ساكتين لا ينطقون، فخرجت من الفصل مسرعة إلى ناظر المدرسة الذي جاء هو الآخر مهرولا، وفي هرولته دفاعٌ عن قِيَم المدرسة وانحياز لإدارتها كما فيها قلقٌ مبعثه أن زوجها ضابط المباحث!.. فصاح بدوره يسأل عن الفاعل، فلم يجب أحد.. وظل هذا هو الموقف حتى انتهى اليوم وذهبنا إلى البيوت!

تصورنا أن المشكلة قد انتهت على هذا، إلا أننا فوجئنا في اليوم التالي أننا قد أوقفنا في ساحة المدرسة ولم يُسمح لنا بالصعود إلى الفصل الدراسي، وعاد الناظر يسأل مجددا عن الفاعل الذي أهان مُدَرِّسَتَه، والطلاب من جهتهم يقولون: لا نعرف. فقال: إذن، لا دراسة، ولا صعود إلى الفصول، وعودوا إلى بيوتكم!

غضب الطلاب واعترضوا ولكنهم في النهاية انصرفوا إلى البيوت ولم يبق إلا ثلاثة يتفاوضون مع الناظر على إنهاء هذا الأمر، وكنتُ من بينهم، وقد حاولنا مع الناظر وجادلناه خصوصا ونحن في السنة الثالثة الثانوية وهي سنة فارقة ومهمة في تحديد مصائرنا الدراسية، وقلت له: لا يمكن أن يُعاقَب الفصل كله بذنب طالب واحد.

قال: أنتم تعرفون من فعل هذا ويجب أن تُخبروا به.

قلنا: نحن لا نشي ببعضنا حتى ولو كنا نعرفه بالفعل (وكان هذا ضد معنى الرجولة بيننا في ذلك الوقت).

فقال: ومع أني أعرفه لكنني لن أصفح عنكم ولن أرجعكم للدراسة إلا إذا اعترفتم أنتم به.

فقلت له: إذن الموضوع متوقف عندك، حيث إنك تعرفه فلتعاقبه ولينته هذا الأمر.

وطال بيننا الجدال وفشلنا في الوصول إلى نتيجة، فخرجنا من عنده لا إلى البيوت ولكن إلى فصل دراسي آخر كي لا تفوتنا الدراسة، ولم يعترض هو على ذلك.

جاء الصباح التالي فتكرر نفس الموقف، لم يسمح لنا الناظر بالدخول إلى الفصل، ولكن هذه المرة لم يرجع الطلاب إلى بيوتهم بل بقينا في ساحة المدرسة، ثم عزمنا على أن نقسم أنفسنا ونتوزع على بقية الفصول فلا تفوتنا الدراسة، وبينما نحن كذلك؛ إذ عملنا على تحريض الفصول الأخرى لتقف معنا (بمقتضى معنى الرجولة نفسه الذي منعنا من الاعتراف على زميلنا، والذي يقتضي عليهم التضامن معنا)، وهم من ناحيتهم أبدوا استعدادا لهذا، ووصلنا إلى اتفاق مع بقية الزملاء أن بداية الأسبوع القادم سيكون فاصلا، إما أن يُسْمَح لفصلنا بالدخول أو أن تضرب المدرسة عن الدراسة، ولا مانع من تكسير المدرسة أيضا!

وعند بداية الأسبوع سارعت إلى الناظر قبل بدء الطابور وقلت له: الطلاب اليوم مصرون على دخول الفصل، وكلهم أبناؤك والأفضل أن يدخلوا إلى فصلهم.

فقال لي بحزم: لن يدخل أحد الفصل!

قلت له: إن ثلاثة أيام من العقاب كافية وكل هؤلاء الطلبة هم أبناؤك حتى ولو أخطؤوا، وأنت بمثابة الأب لهم جميعا.

فلم يُجْدِ كل هذا الكلام الحسن شيئا، وأصر على موقفه، فقلت له: إني أعلم أن

الطلاب قد عزموا أمرهم وأنهم إن لم يدخلوا إلى الفصل اليوم فلن يدخل بقية الطلاب إلى فصولهم تضامنا معهم أيضا، فأبرق وأرعد وهددنا، فعدت مرة أخرى إلى الكلام اللين وأنه مثل الأب للجميع وأن الأمر لا يحتمل أن يستمر أكثر من ذلك. ولمرة أخرى لم ينفع هذا معه فقلت له في صيغة نصفها ودّ ونصفها تهديد: لقد قمت بما عليّ وأبلغتك بما يمكن أن يحدث إذا استمر هذا الوضع.

توجس خيفة من هذا الوضع، ولكنه أصر على موقفه، فاتصل بجهاز الأمن.

ومن جانبنا سارعنا بتوزيع أنفسنا على الفصول، فسارعت تلك الفصول للإضراب عن الدراسة ورفضوا أن يدخلوا إلى فصولهم، وفيما بعد اكتشف طلاب الصف الأول والثاني الثانوي أننا لم ندخل فعادوا من فصولهم بعد أن وصلوا إليها. وبدأ التوتر يخيم على الموقف: المُدَرِّسون يحاولون سوق الطلاب إلى الفصول والطلاب يمتنعون، ثم انفجر الموقف حين أراد المُدَرِّس محمد سرور أن يستعمل القوة فصاح في الطلاب بعنف أن يدخلوا فردَّ عليه طالب طويل القامة قوي البنية واسمه عادل قائلا: هذا ليس من شأنك يا أستاذ سرور. وجُنَّ المدرس الذي لم يتعود أن يخاطبه أحد من طلابه هكذا، فصفعه على وجهه، وما كان هذا الصفع يليق أيضا على طالب يرى نفسه قد صار رجلا أمام زملائه، فكانت هذه هي نقطة انفجار الموقف.

انفلت الأمر، وتشتت الطلاب الغاضبون في كل جهة، وصعدوا إلى الفصول التي لم تنتبه بعد لما حصل، وأخرجوا الطلاب، وألقوا بالأدراج من الطوابق العليا، وسرت الفوضى التي لم يكن أحد قادرا على إيقافها مع غضبة الطلاب، بل هدم بعضهم شُرفتين من شُرَف المدرسة، وبدأ آخرون بملاحقة المدرسين ولم ينج منهم إلا من أغلق على نفسه بابًا واختفى من المشهد. كان الأمر أشبه بثورة شعبية مصغرة يطارد الشعب فيها ممثلي السلطة في لحظة قوتهم وضعفها ويهدمون رمز المؤسسة السلطوية

التي تحكمهم، وهي في حالتنا هذه: المدرسة.

كانت مدرستنا بين مدارس أخرى، فما إن سرى خبر «الثورة» في مدرستنا، حتى انتقل منها بغير تدبير إلى المدرسة الثانوية الصناعية المجاورة، وإذا بها وبغير سبب ما يوقفون الدراسة ويُكسرون المدرسة ويطاردون الأساتذة ويهتفون «معكم يا ثانوية عامة»!! وكان هؤلاء الطلاب، لظروفهم المعروفة ، أقل رغبة في الدراسة وأكثر رغبة في التمرد وأطول خبرة في معاركة الحياة كذلك فكانوا أكثر جرأة وشجاعة وإقداما.

سيطر الطلاب على المدرسة، ومطلبهم المعلن هو دخول فصلنا إلى صفه وانتظامه دراسيا، وعند هذه اللحظة حضر ضابط الأمن إلى المدرسة يحاول أن يفهم ما حدث، وفوجئ بهذا الوضع الجديد، فسارع إلى تهدئة الوضع وما إن استقر الأمر حتى دخل بنفسه إلى كل فصل وأخذ في سؤال الطلاب عن السبب والأزمة، فإذا به يسمع في كل فصل حادثة الطباشير وعقوبة المنع من الدراسة، ففهم أن الأمر لا يحمل معنى سياسيا وليس وراءه دافع من خارج المدرسة، فاتخذ لنفسه مهمة الوسيط بين الطلاب وبين إدارة المدرسة من أجل إنهاء الموقف.

ساعتئذ كانت إدارة المدرسة قد وقعت في الحرج، لقد انفلت الموقف حتى تمرد الطلاب وكسروا بعض أجزائها وأصابوا المدرسين وكسروا هيبة الإدارة، فاستغاثوا بجهاز الأمن لتأديب الطلاب وجعل ما حدث عبرة لمن يعتبر فلا يزالون يهابون المدرسة وإدارتها، ولا يترددون في الطاعة ولا يفكرون في العصيان، ثم ها هو جهاز الأمن الذي استغاثوا به يتحول فجأة من موقع العصا والتأديب إلى موقع الذي يتوسط لحل المسألة وتهدئة الأمور!! إن الأمر لو استمر على هذا الحال فلن يبقى للمدرسة ولا ناظرها هيبة ولا طاعة، بل وسيسهل على الطلاب التمرد في كل وقت، طالما التمرد يحصد المكاسب ولا يجلب العقوبة!! لكن المأزق الأهم هنا أن أحدا منهم لا يملك أن

يعارض رغبة جهاز الأمن الذي هو فوق كل جهاز، لقد صار الموقف معكوسا فبدلا من أن يكون الطلاب والأمن في المواجهة صارت المواجهة الآن بين إدارة المدرسة التي تريد أن تعاقب وجهاز الأمن الذي يريد حل الموضوع!

أراد الناظر الخروج من الأزمة ببعض حفظ ماء الوجه فاشترط فصل بعض الطلاب، الذين هم الزعماء المحرضون كما قال، فلم يجد إلا الطلاب الذين بقوا وتفاوضوا معه، وكنتُ من بينهم بطبيعة الحال، إلا أن الأستاذ عيد الرافعي وقف معي وجادل عني وذكر كثيرا أنني لم أكن محرضا وإنما كنت وسيطا وإنما كان الطلاب يثقون بي ويُقَدِّمونني ولهذا كانوا يخبرونني عما ينوون فعله وكان دوري أن أخبر إدارة المدرسة وأحاول إنهاء الأمر لولا تعنت الناظر. وبعد مجهود وجدال استطاع أن يخرجني من بين الطلاب الذين سيقررون فصلهم. لكنهم وجدوا أن طالبا آخر من هؤلاء الخمسة هو ابن عمدة قرية قريبة، وكان الرجل كبيرا في قومه وصاحب نفوذ، ومسألة عقاب ابنه بالفصل من الدراسة قد يترتب عليها مشكلات فأخرجوه أيضا، وبقي طالبان أو ثلاثة لم يكن لهم ظهير فقرروا أن يفصلوهم من الدراسة.

ما إن بلغنا الخبر، ونحن كنا في لحظة انتصار، وما بالك بنفسية المنتصر؟ وما بالك بلحظة الرومانسية الثورية التي تعقب النصر؟! فما إن بلغنا الخبر حتى كان موقفنا جازما لا تردد فيه: لن نسمح بفصل أي طالب ولا حتى لساعة، ولو أُخرج طالب من فصله فلن تستقر المدرسة. وبالفعل وبفضل موقف الطلاب المتوحد ألغيت قرارات الفصل، وخرج الطلاب من هذه «الثورة» وقد حققوا كل مكاسبهم، وكانت إدارة المدرسة هي الخاسرة كل الخسارة.

من بعد هذه الحادثة كان ضابط أمن الدولة يكثر الجلوس معي، اعتبرني زعيما للطلاب ومحرضا لهم، وكان يريد أن يفهم كيف أفكر، وممن أستلهم آرائي، وما هي

علاقاتي... ومن جهتي كنت أكرر دوما أنني من أعضاء الاتحاد الاشتراكي ومنظمة الاتحاد الاشتراكي العربي، وأنني ابن البلد، ومن جيل الثورة، وأن لهذه الدولة والثورة الفضل علينا... إلخ! كنت أعرف أنه من الضروري إقناعه أننا شباب صغير وليس بيننا وبين الدولة شيء!

كان يقتنع بما أقول، على الأقل: يُظهر لي هذا الاقتناع، وفي الواقع لم يكن لديه ما قد يشككه فيما أقول، بينما كنتُ بالفعل قد كونتُ جماعة من زملائي بدأت بأحد عشر طالبا، ثم زاد عددها في الصف الثالث الثانوي إلى ثمانية عشر طالبا، كما كنتُ قد ذكرتُ سابقا. ولكن الجديد الذي يجب قوله هنا ونحن في الصف الثالث الثانوي هو ذلك العهد الذي قطعناه على أنفسنا: أن ندخل جميعا الكلية الحربية!

كان هذا العهد فرع عن تصورنا الذي ذكرته من التفكير في انقلاب عسكري لإقامة الدولة الإسلامية، ودخول الكلية الحربية هو الخطوة الأولى منها، وتعاهدنا على ذلك والتزمنا سريته، وقد التزم الجميع بهذا العهد، وعند انتهاء الصف الثالث الثانوي قدموا جميعا أوراقهم إلى الكلية الحربية، لكن حصل ما لم نحسب له حسابا: لم يقبل من هؤلاء جميعا إلا طالب واحد فقط!

ومع ذلك فقد بقيت لنا صلة به، وكان يتابع معنا حتى أصبح ضابطا وحصل على رتبة ملازم أول، وحينها بدأ يتغير ويتخلص من هذا العهد الذي قطعناه معا قديما، كان يتعذر بأننا تأخرنا في الدراسة المدنية، وهذا صحيح وإن لم يكن عذرا، فقد توزعت مجموعتنا بين كليات الطب والهندسة والتجارة والعلوم، دخلتُ كلية التجارة وتأخرت فيها لظروف سأقصها فيما بعد، ومن دخلوا كلية الطب كانوا ينهون دراستهم بعد سبع سنوات، ومن دخلوا كلية الهندسة ينهون دراستهم بعد خمس سنوات، وهذا الذي قُبِل في الكلية الحربية كان يُفترض به أن يدخل كلية العلوم إلى جوار آخر من

مجموعتنا، اسمه أحمد سالم، دخل العلوم بعدما لم يُقبل في الكلية الحربية وتدرج فيها حتى صار أستاذا، وأحسب أن هذا الذي دخل الكلية الحربية لا يزال في صفوف القوات المسلحة وإن كانت قد انقطعت علاقته بنا من ذلك الوقت البعيد.

غلب على هذه المجموعة الاتجاه الوطني وليس الإسلامي، وقد حصل لنا تحول آخر حين دخلنا الجامعة، إذ بقي الأغلب ضمن هذا الاتجاه الوطني ولم يتحول إلى الاتجاه الإسلامي سواي وآخرُ معي.

لكن لهذا حديث آخر.. ويجب أن يكون قبله حديثٌ عن انضمامي لصفوف الطلائع في الاتحاد الاشتراكي.

أول الاشتباك بالسياسة

عندما كنا صغارا في المدرسة الإعدادية كانوا يختارون الطلاب الخمسة الأوائل على كل فصل، ويُحفِّظونهم خطب جمال عبد الناصر، ويحدثونهم عن الاشتراكية، ويشرحون لهم الميثاق، ثم كانوا يعقدون لهم لقاءات دورية -لا أتذكر الآن إن كانت شهرية أم نصف سنوية- بالإضافة إلى معسكرات صيفية في الإسكندرية ورأس البر، وأما بالنسبة لنا في مركز إدفو فقد كان معسكرنا في أسوان، ننزل هناك في نزل الشباب، التي كانت ضمن ما كان يسمى «بيوت الشباب» وهي تتبع وزارة الشباب والرياضة، وكان لها في ذلك الوقت أنشطة ضخمة. وهذه المعسكرات مختلطة بين الأولاد والبنات، لكن الأنشطة نفسها منفصلة حيث ينزل الذكور في مكان والإناث في مكان آخر. لم يبلغ الأمر كما كان في تركيا -مثلا- حيث يبيت الشباب والفتيات في مكان واحد. واستقر الوضع على هذا الشكل في المرحلة الابتدائية والمرحلة الإعدادية.

وبموازاة هذا، كانت ثمة مسابقات في ذلك الزمن تسمى مسابقات أوائل الطلاب، وكان يتسابق فيها الطلاب الخمسة الأوائل الذين هم بطبيعة الحال أعضاء البراعم والطلائع في الاتحاد الاشتراكي، وفيها يتعارف ويتنافس أولئك الطلاب الذين يجري إعدادهم ليكونوا نخبة الدولة. وللحق، فلقد كان الاتحاد الاشتراكي يعمل جيدا على هذا الملف، فحين يستخلص من كل فصل -لا من كل مدرسة- أفضل خمسة طلاب فيه، ثم يتعهدهم بالتكوين والإعداد والدعم، ثم يفتح لهم بعد التخرج أبواب الوظائف المهمة في مناصب الدولة.. فعندئذ فإن النخبة الجديدة الحاكمة ستكون قد جرى إعدادها وتربيتها منذ أول النشأة، وسيكونون قد تعارفوا عبر هذه السنين من خلال اللقاءات الدورية والمعسكرات والمسابقات، هنا سيكون الناتج نخبة حاكمة ذات نظام أخطبوطي يضمن للدولة أن تستمر على هذا لمئات السنين دون أن تنهار.

كانت هذه صورة ونظام الاتحاد الاشتراكي كما رأيتها، وكانت تلك الفترة حافلة بالمشاعر الوطنية الملتهبة المرتبطة بجمال عبد الناصر الذي هو في روحنا «الزعيم»! ولم تتفكك هذه البنية العقدية القوية إلا حين طرح السادات فيما بعد فكرة تطوير الاتحاد الاشتراكي، فطُرِحت ورقة بهذا العنوان «تطوير الاتحاد الاشتراكي العربي»، وقد حضرتُ مناقشات هذه الورقة.

وبهذا أستطيع أن أُجْمِلَ صورة أيامي في المرحلة الثانوية في هذه المسارات: الصوفية، وزعامة المدرسة ونشاطها الطلابي، وعضويتي في طلائع الاتحاد الاشتراكي، والاستدعاءات المتتالية لقسم الشرطة وحديثي المتكرر مع ضابط المباحث الذي كان يحرص على أن يكون حديثه وديا وأخويا وفي مكان غير المدرسة أو قسم الشرطة.

وأما المشهد العام في تلك المرحلة فأول ما فيها أني لم أعِ جيدا حرب الاستنزاف، ربما لكوني وقتها في السنة الثالثة الإعدادية أو لأننا لم نكن نشعر بها، كذلك لم

يشغلنا كثيرا مبادرة روجرز سنة 1969 في أواخر حكم عبد الناصر والتي كانت قبل وفاته بشهور، إلا أن الحدث الذي لا يُنسى من تلك الفترة هو استشهاد الفريق عبد المنعم رياض رئيس الأركان، وكان ذلك في مارس 1969، فقد كان لهذه الحادثة تأثير ضخم، وكان له جنازة حافلة مهيبة حظيت بتغطية إعلامية كبيرة وحضرها جمال عبد الناصر وبكى فيها، وقد أخرجونا نحن -طلابَ المدارس- في مظاهرات وجنازات رمزية.

كذلك فقد نفذت القوات الإسرائيلية عدة ضربات في العمق المصري، ومن أشهرها؛ قصف مدرسة بحر البقر التي استشهد فيها عدد من الأطفال في مدرستهم، وعندنا في جنوب مصر وقع قصف أيضا لكوبري (جسر) إدفو في أسوان، وكان هذا الجسر يبعد عن مدرستنا كيلو مترا واحدا فقط، وقد ذهبنا إلى هناك ورأينا آثار القصف والقنبلة وما أحدثته من دمار.

وهنا بدأ ينتشر في مصر نظام المدارس العسكرية، وكان يجري تدريبنا عسكريا في المدرسة، كما انتشرت التعليمات ببناء جدران أمام المداخل والأبواب، وخصوصا أبواب المدارس بعرض 3 أمتار وارتفاع 3 أمتار أيضا، وكانت لا شك مهمة باهظة التكاليف، ولم أكن أدري حينها لماذا يبنون هذه الجدران؟ كذلك فقد تم تحديد عدد من الأماكن بمثابة المخابئ والملاجئ التي ينبغي على الناس الذهاب إليها وقت حدوث الغارات.

لم يكن الشعب يخشى الحرب مع إسرائيل، بل كان يفور حماسة حقيقية، وكان مشحونا بأثر القوة الإعلامية المتواصلة، وفي الواقع لقد صنعت هذه القوة الإعلامية من جمال عبد الناصر زعيما حقيقيا، وإذ كان يحتكرها وليس ثمة صوت غيره فقد مَكَّنَتْه بحق من أن يكون محبوب الجماهير، ولقد رأيتُ أبي يبكي بكاء حقيقيا يوم إعلان عبد الناصر تنحيه، ورأيته يبكي مثل ذلك يوم وفاته، ولم يكن أبي إلا رجلا

بسيطا فلم يكن مؤدلجا ولا صاحب فكر وتوجه، إنما هو كعموم الناس، ومع هذا فقد كان في غاية الانفعال والتأثر.

بينما كان الأمر على العكس من هذا حين جاء السادات، لقد بدا السادات ضعيفا مهزوزا لا يستطيع أن يكرر زعامة عبد الناصر القوية ولا أن يملأ ثوبه المهيب، خصوصا في السنوات الثلاث الأولى (1970 - 1973م) حتى قامت الحرب. ولم يكن الناس يرونه صالحا ليكون رئيسا للجمهورية، وعلى ما يبدو فإن طاقم الرجال الذين أداروا هذا الملف تعمدوا توصيل هذه الصورة عنه، وإن كنا عرفنا فيما بعد أنها لم تكن صورة صحيحة، وأنه تعمد أن يكون بهذا المظهر الضعيف ليعالج بها معاركه الداخلية في أروقة الدولة التي ينفذ فيها رجال عبد الناصر الأقوياء. كان عبد الناصر يخطب بقوة وعنده ذلك الحس الجماهيري الذي يجذب به الأسماع والأنظار فيؤثر فيها، بينما كان خطاب السادات هادئا مستكينا، تكثر فيه اللهجة العاطفية ولغة القرية، يتحدث كثيرا بالعامية.

لكن الذي يلفت النظر هنا أن هذه اللهجة في الخطاب بدأت بالتدريج تجذب بعض الناس وتجد لها أنصارا، كان السادات ضمن هذه الصورة الهادئة المستكينة يتحدث عن مبادرات سياسية تتجنب دخول الحرب (على العكس من موقف وسياسة عبد الناصر التي تتوعد إسرائيل)، فقد حاول البناء على مبادرة روجز ووافق على مدِّ الهدنة ووقف إطلاق النار، ثم طرح مبادرة عام 1971م، وكان يبرر هذا بأنه إنما يفعله ليحافظ على أبنائه لأقصى درجة وليحافظ على البلاد ويجنبها متاهات الحرب. وقد وجد هذا النوع من الخطاب أنصارا وبدأ يتشقق الموقف في المجتمع المصري من خوض حرب التحرير مع إسرائيل، فخصوصا كبار السن كانوا يقدرون هذا الشعور الأبوي ويتعاطفون مع السادات، ويتحدثون عن الحرب التي لا تأتي بالخير. فيما بعد عرفنا أن هذه اللهجة

نفسها كانت من وسائل السادات التي استعملها لإيهام إسرائيل بأننا لن ندخل الحرب أبدا.

فيما قبل الحرب لم تكن الجماهير مع السادات أو ضده، حتى ما سماه ثورة التصحيح (مايو 1971م) والتي أقصى فيها رجال عبد الناصر لم يتعامل معها الشعب بالحفاوة أو بالإنكار، كأن هؤلاء المغلوبين لقوا جزاء طبيعيا، فحيث لم يكونوا من اختيار الشعب فليس للشعب منهم موقف، ولعل قائلهم يقول أيضا: وحيث كانوا من رجال عبد الناصر وقد رحل كبيرهم فلا تثريب أن يرحلوا مثله، ثم لم يكن منهم أحد معروفا بزعامة ولا له في قلوب الناس مكانة. ولو شئنا أن نقول إلى أي الجانبين كان الشعب يميل فسنقول بوضوح: إلى جانب السادات، ولعلها كانت عند بعض الناس من حسناته ومن بشائر عهده.

إلى هنا تنتهي المرحلة الثانوية، ليبدأ الحديث عن المرحلة الأكبر والأخطر: مرحلة الجامعة.

أيام الجامعة

أحلام ضائعة وأخرى قد وُلِدت

حلم كلية الطب!

لم يكن ثمة شك في أني سألتحق بكلية الطب، لقد كنت من المتفوقين طوال حياتي الدراسية، وقد التحق رفاقي السبعة بالفعل بكلية الطب، إلا أن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن.

كان صديقي أحمد سالم هو رفيقي في مقعد الدراسة أيضا، وكانت صداقتنا قوية ومنعقدة على التفوق والحب أيضا، وقد بلغنا من التفوق -ولا بأس أن نقول هنا؛ من الغرور- إننا فكَّرنا في اختراع قوانين رياضية لحل المسائل، فإن كنا نحلُّ المسائل وفقا لقوانين وضعها آخرون فلسنا بأقلَّ منهم شأنا لنضع نحن أيضا قوانين تُحَلُّ بها المسائل. كنت أنا وهو نكمل بعضنا البعض في هذا الجانب الدراسي، وقد جاء اليوم الذي وضعنا فيه قانونا لحل المسائل الرياضية (فرع الجبر) بعد أن هدانا تفكيرنا إليه، وجربناه على ثلاثين مسألة فكانت النتائج صحيحة، فقلت لصديقي: لا يمكن لقانون أن يكون خطأ بعد حل ثلاثين مسألة، وبدا أننا قد وصلنا سريعا إلى

ما نصبو إليه، فهرعنا إلى الأستاذ عبد الوهاب أستاذ مادة الرياضيات وعرضنا عليه القانون الذي وضعناه فجرَّبه على عشر مسائل أخرى فإذا بها تنحل وتعطي النتائج الصحيحة، ودهش الأستاذ، ساعتها لم يخامرنا شكٌّ في أننا وضعنا قانونا جديدا في علم الرياضيات، ثم أخذنا إلى أستاذ آخر كان مدرسا أول لمادة الرياضيات، وعرضنا عليه القانون الجديد فجربه على مسألتين فلاحظ شيئا خاطئا مركبا في القانون وفي تطبيقنا له، وهذا الخطأ المركب هو الذي كان يفضي في النهاية إلى خروج الحل الصحيح للمسائل التي نجربها عليه. للأسف لم تعش فرحتنا إلا أمدا قصيرا، لكني أسرد هذه الحكاية هنا وصفا لما كنا فيه من التفوق ومن علاقتنا ومن إكمالنا لبعضنا، وهو ما له متعلق بسؤال: لم لم أدخل كلية الطب؟

كانت خطتي في المذاكرة والامتحانات أن أحصل على الدرجات النهائية في مواد العلوم والرياضيات ولا أسمح لنفسي بالنقصان ولو درجة واحدة، إذ إن مواد اللغة العربية والإنجليزية مما يصعب الحصول فيها على الدرجات النهائية فلتكن هي وحدها المواد التي سأنقص فيها بعض الدرجات. وجاء اليوم الأول في الامتحانات وكان فيه امتحانان: اللغة العربية والجبر. وقد أديت أداءا حسنا في امتحان اللغة العربية ثم دخلت إلى مادة الجبر التي لن أسمح لنفسي فيها بنقصان درجة واحدة!

من مفارقات الأقدار أن واضعي امتحان الجبر في تلك السنة أخطؤوا ووضعوا سؤالا خاطئا، لكن الطلاب لم يعرفوا أنه خاطئ وإنما تصوروا أنها مسألة صعبة، وكانت هذه المسألة هي السؤال الثاني من بين أربعة أسئلة يتكون منها الامتحان، وقد تكهرب الطلاب لهذا السؤال العسير إلا أن معظمهم فعل ما هو طبيعي منطقي، أنهم تجاوزوه ليحلوا باقي الامتحان، أما أنا فلن أفعل! إذ كيف لمتفوق مثلي كاد أن يضع قانونا في الجبر أن يتوقف أمام مسألة؟! لقد كنت مشهورا بأني لا تقف

أمامي مسألة أبدا حتى إن مدرسا استعان بي يوما لحل مسألة تعسرت عليه، ثم كيف لمثلي أن أخفق أمام مسألة في امتحان عزمتُ على أنه لن أنقص فيه درجة واحدة؟! وتحول الأمر إلى ما يشبه المعركة الشخصية والتحدي الخاص بيني وبين المسألة، ظللت أمام المسألة (الخاطئة أصلا) أقلبها يمنة ويسرة وأدور حولها أماما وخلفا وهي لا تنحل، وهكذا حتى مرَّ نصف وقت الامتحان أمامها، ولما شعرت بالأزمة والاختناق هرعت إلى إكمال بقية الأسئلة لكنني لم أدرك الحل، وانتهى الوقت وأُخِذَت الورقة مني وقد تركت سؤالين كاملين.

انتهى يوم الامتحانات الأول بصدمة غير متوقعة ترتب عليها إحباط شديد، كما ترتبت عليها نتيجة أسوأ وهي سوء سلوكي في المواد الأخرى بعد أن أدركت ضياع حلمي على يد مادة الجبر، ولم ألبث أن عرفت صباح اليوم التالي أن المسألة خاطئة من الأصل وأن درجاتها ستوزع على أسئلة الامتحان الأخرى فزاد همّي وغمّي، ولهذا السبب حصلت في الثانوية العامة على 71 بالمائة.

لم تكن هذه الدرجة سيئة، بل كانت تؤهلني لدخول المعهد العالي الصناعي في المنيا، ولم يكن هذا بعيدا عن طموحي في دراسة الهندسة، إذ لن يلبث المعهد أن يتحول إلى كلية الهندسة، وهو التحول الذي حصل في نفس هذه السنة، إلا أن رغبتي في كلية الطب كانت أقوى وكانت تهيمن عليّ بشدة، فقررت أن أدخل كلية التجارة لاعتقادي أنها سهلة، وأنني سأتمكن من أن أعيد الثانوية العامة بالتوازي مع دراستي فيها، فلقد عزمت على أن أعيد الثانوية العامة لأتمكن من دخول كلية الطب من جديد.

إلا أن رياحا أخرى أشد جاءت بما لا تشتهيه السفن! لقد كنت أجهل إجراءات إعادة القيد في الثانوية العامة، لقد ظننت أن بإمكاني الالتحاق بالامتحانات في نهاية

السنة، ولم يكن لي علم بضرورة التسجيل في المدرسة لهذا الغرض حتى فات وقت إعادة القيد وانتهى، لم أكتشف هذا إلا حين تحدثت مع صديقي عبد الجواد الذي كان رفيقا في سكن الرابطة (تشبه المدينة الجامعية) في قنا، حين سألني: في أي مدرسة سَجَّلت لإعادة امتحان الثانوية العامة؟ فقلت ببساطة: حينما أنهي امتحانات كلية التجارة سأذهب لأمتحن في إدفو، فسألني: هل أعدت قيدك في إدفو؟! فقلت: لا، فقال: كيف؟!.. لقد انتهى وقت التسجيل وإعادة القيد!!

وقعت الصدمة فوق رأسي، وبكيت بكاء شديدا في تلك الليلة، وحاولت من الصباح أن أعيد تسجيلي لامتحان الثانوية العامة وبذلت كل ما أستطيع إلا أنني لم أفلح، وزاد همِّي وغمِّي أضعافا مضاعفة، لقد فاتني حلمي في الطب حين توقفت أمام هذه المسألة التي كانت أصلا خاطئة، ثم لم أدخل كلية الهندسة لكي أحفظ لنفسي إمكانية إعادة امتحان الثانوية العامة، ثم ها أنا أكتشف أن امتحان الثانوية العامة نفسه قد ضاع أيضا!! وتذكرت يومها صديقي ورفيق الدراسة أحمد سالم الذي التحق بكلية العلوم وألحَّ عليّ أن أدخلها معه لنتفوق معا ولنكون من بعدها أساتذة بالكلية، إلا أنني واجهت إلحاحه بإلحاح مقابل: أني إنما دخلت كلية التجارة لإعادة امتحان الثانوية العامة!

تحطمت آمالي، وصرت في موقفٍ لم يمرّ عليّ مثله من قبل، وكرهتُ كلية التجارة التي صارت سجني من بعد ما كنتُ أظنها وسيلتي ومعبرا لي إلى ما أحب، فلم أهتم بأن أذاكر، ونجحت بصعوبة في السنة الأولى، ووجدتني أنجح بصعوبة بينما صديقي أحمد سالم الذي طالما ألحَّ عليّ أن أكون معه قد نجح بتقدير جيد جدا في كلية العلوم، وبقية أصدقائي بين الطب والهندسة، وهكذا انتهى مساري الدراسي أسوأ نهاية: لا أنا تفوقت في الثانوية العامة، ولا دخلت الطب، ولا دخلت الهندسة،

ولا استطعت العودة إلى الثانوية العامة، ولا تفوقت في كلية التجارة!

أحلامٌ صوفية!

حصل هذا كله في أول عهد السادات، أو كما كان يقول «دولة العلم والإيمان»، وقد كنتُ حتى ذلك الوقت في الاتحاد الاشتراكي، فكنتُ مع التيار اليساري ضد السادات، لا سيما وقد كانت الأخبار تنقل أخبار التوتر في العلاقات بين السادات والاتحاد السوفيتي، وأن السوفيت لا يعطون الأسلحة الضرورية التي يحتاجها السادات، وأن هذا ما يؤخر التحرك العسكري، ولهذا فلن يكون عام 1971 هو عام الحسم كما كان يقال لنا.

مر عام 1971، ثم وراءه 1972، ولا حسم ولا حرب، فشرع اليسار المصري بتنظيم مظاهرات كثيرة، وكنت أشارك فيها كطالب عادي أو كمواطن مصري، مجرد مشاركة ليس فيها تزعم، ففي ذلك الوقت لم تكن قضايا الشأن العام تشغلني كثيرا، وسائر ما كان مني قبل هذا إنما كان بسبب إغراء تجربة عبد الناصر في الانقلاب العسكري، وكان دخولي الاتحاد الاشتراكي لطبيعة تفوقي الدراسي، ولذلك فقد كنت حتى تلك اللحظة عضوا في الاتحاد الاشتراكي وعضوا في الطريقة الصوفية.

ولم يكن الجمع بين عضوية الاتحاد الاشتراكي والصوفية عملا متناقضا آنذاك كما قد يبدو الآن، بل إن كثيرا من قيادات الدولة كان يغلب عليها الطابع الصوفي، حتى في أمن الدولة، وكان رئيس مجلس المدينة صوفيا، ومأمور القسم صوفيا. والجمع بين ذلك بسيط: فالتدين على الشكل الصوفي تدين مرغوب فيه من جانب الدولة، وأستطيع أن أشهد على هذا من واقع ما رأيته وعاينته، بل لقد كان جزءا من الدعاية الإعلامية لعبد الناصر أنه مدعوم من الأقطاب الصوفية الأربعة، ومما كان ينتشر في

زماننا أن بريطانيا ألقت قنبلة ذرية على القاهرة فصدَّها عن القاهرة شيخ الصوفية الأكبر في مصر، وذلك أنه صعد في السماء وأمسك بالقنبلة ثم أراحها على قبة الجامع الأقمر فلم تنفجر، ولا تزال موضوعة فوق القبة حتى الآن. فمن هاهنا كانت الهالة الإعلامية حول جمال عبد الناصر تحتوي طيفا صوفيا فلم يقع التناقض في نفوس الكثيرين بين عضوية الاتحاد الاشتراكي وعضوية الصوفية.

بل كان المُوَجِّهون في الاتحاد الاشتراكي يغلب عليهم الطيبة، حتى إن المُوَجِّه العام على مستوى أسوان واسمه الأستاذ سعد وكان مُصَعَّدًا من الطبقة العمالية، ودخل لانتخابات حتى صار الأمين العام على مستوى أسوان، وكان شابا في الثلاثينات من عمره، وكان يتحدث عن إصلاح الدولية وكيفية بنائها، وهو نفسه كان يؤمنا في الصلاة. إلا أنهم أخذوا من الاشتراكية ما وافق شهوة الشباب، فكانوا يأخذون منها العلاقات المحرمة مع الفتيات وأن يكون بينهم علاقة خارج الزواج، وتلك من الأمور التي دفعتني لترك الاشتراكية والتوجه للتيار الإسلامي الذي كان يتشكل في أعوام 1974، 1975م.

وفيما قبل حرب أكتوبر كانت تسود حالة من الغليان تشمل جميع الشباب بلا استثناء، وكان التفكير السائد هو التفكير في تحرير فلسطين، لم يكن أحد ينادي بتحرير سيناء بل ولم نكن نشعر أن سيناء هي المحتلة بقدر ما كنا نشعر أن المعركة حول فلسطين بل وسوريا أيضا.

حلم التغيير

لكن قبل الذهاب إلى وصف ما حصل في حرب أكتوبر أحب أن أتوقف هنا في نبذة مهمة عن العلاقة بيننا وبين آبائنا وأهالينا في هذه الفترة:

ليس ثمة شيء متميز في أسرتي، كانت أسرة عادية، متوسطة أو حتى أقل من المتوسطة، وفيما يخص -مثلا- أني لم ألتحق بكلية الطب أو الهندسة كان أبي يشعر بأنني طالب متميز ومتدين وكان يشعر أن هذا حدث بقدر الله، لم يكن متدينا بل مسلما عاديا ولكنه كان متوكلا على الله للغاية، فكان يقول: هذا قدر الله، وأنت على كل حال ستذهب إلى الجامعة. كانت ثقافة الناس وقتها أن الطالب طالما سيدخل الجامعة فالفارق ليس كبيرا بين الكليات. وكان يعزز من شعوره هذا أن أصدقائي حين كانوا يزورونني في البيت كانوا لا يتحرجون من إظهار اعترافهم بتفوقي وتميزي وأن المسألة حظوظ في نهاية الأمر. نعم، كان هذا يزيد من حزنه ولكن كان يزيد أيضا من تعاطفه وتشجيعه لي، وهكذا كانت أمي وكان إخوتي.. لقد كانوا يتخذونني قدوة!

وتلك على الحقيقة لم تكن مزية خاصة بي، وهذا هو ما أريد التركيز عليه هنا، لقد كان جيلنا هذا من الشباب هو الجيل الذي قاد آباءه وأثَّر فيهم أكثر بكثير مما قادوه وأثروا به، إن قصتي مع أهلي هي قصة مكررة لإخوة الجماعة الإسلامية مع أهاليهم، وأتذكر هاهنا مثلا معبرا:

كنت أذهب مع أبي لشركة بيع المصنوعات المصرية، والتي كان عُمَّال المصنع يأخذون منها حاجتهم، فكنت أقف مع أبي في الصف، وكان يريد أن يتقدم الناس لأولوية أنه عامل، وكان الذي يبيع يتحرج من نهره كما ينهر غيره من الناس إن تجاوزوا أدوارهم لكونه من عمال المصنع، فكنت أنا الذي أقول له: يا أبي لا بد أن نلتزم دورنا، وإذا أحببت ألا تقف لطول الوقوف فاجلس وأنا أقف مكانك في الصف حتى يأتي دورك. وحين يقع مثل هذا الكلام أمام الناس والعاملين؛ كانوا يأذنون لنا في أن نتقدم عليهم ونأخذ أولا.

هكذا كان الآباء يشعرون تجاهنا بشعور الاعتزاز والفخر، لم نكن مثل أبناء اليوم مع آبائهم، أولئك الذين يغلب عليهم التمرد، وإني حين أقارن بين علاقتي مع أبي وعلاقتي مع ابني عمار مثلا أرى أن أبي كان ينصحني بألا أتهور وألا أواجه السلطة، وكان يُذَكِّرني دائما بأننا لا نستطيع مواجهة الحكومة، يقول: لدي أبناء غيرك وأريد أن أربيهم وأرعاهم كما ربيتك ورعيتك. وعندما أطلقت لحيتي قال لي: ليست لدي مشكلة في هذه المسألة لكن إن اعتقلوك فمركز إدفو بعيد عنا ولن أستطيع حتى أن أساعدك. ومن المواقف الطريفة المتعلقة بهذا الأمر أنني عندما اعتقلت سنة 1982 جاء لزيارتي في معتقلي بالقاهرة، فذكّرته بهذا وقلت: جئتي إلى مصر (القاهرة) وليس إدفو؟! فقال: ألا زلت تذكر؟! وهل هناك من يترك ابنه، وبكى! فقلت له: ما رأيك يا أبي أني إذا خرجت من المعتقل فسأحلق لحيتي؟ فقال: إن فعلتَ فلست ابني. لم أكن جادًّا بطبيعة الحال وإنما كنت أحاول اختبار موقفه!

أما بالنسبة لابني عمار فإني أقنعه أن يخرج في المظاهرات فيشارك إخوانه والشباب فيرفض، ويجادلني قائلا: لم نفعل شيئا في الجماعة الإسلامية طوال عشرين سنة، ثم يقول: اترك لي اختيار الطريق الذي أريده. وهكذا، كنت أحث أبي على الفضيلة، ثم إني أحث ابني على الفضيلة، كأن الموضوع قد انعكس تماما. لقد أثبتت التجربة أننا كنا ثوريين أكثر من أبنائنا!

شباب جيلنا أنشأ الجماعة الإسلامية من لاشيء، فإذا قلنا الآن إننا فشلنا وإن الإخوان فشلوا فأين الجيل الجديد؟ أين الذي ينشئ تنظيما جديدا يكون بديلا لهذه التجارب التي يراها فاشلة؟! نحن في جيلنا كنا البديل لما نراه قد فشل، كنا بديلا للإخوان حين لم يعجبنا سلوكهم، كانت ردة فعلنا إنشاء جماعة جديدة، كنا نطمح ونتحفز ونخطط لنقوم بانقلاب عسكري ولنقود ثورة شعبية ولنحكم مصر، وكنا

ساعتها في العشرينات، أما شباب العشرينات اليوم فنحن نحاول أن نقنعهم بالعمل!

حلم الانقلاب العسكري

كذلك لا بد أن أحكي لك -عزيزي القارئ- مصير المجموعة التي كوَّنْتُها في المدرسة والتي سمَّيْناها «جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، تلك المجموعة التي رويت سابقا كيف أننا بنيناها على حلم بسيط واضح: أن ندخل إلى الكلية الحربية، لننفذ فيما بعد انقلابا عسكريا ونقيم الدولة الإسلامية، مثلما فعل عبد الناصر عندما أسس دولته بانقلاب على الملكية ولم يكن إلا مجرد ضابط!

بلغت هذه المجموعة خمسة عشر طالبا، وبمجرد ظهور نتيجة الثانوية العامة نفذنا جميعا بلا استثناء الخطوة الأولى: التقدم بطلبات الانتساب للكلية العسكرية: الكلية الحربية والكلية الفنية العسكرية وكلية الشرطة، كنتُ أنَسِّق وأتابع، لكن اختيار هذه الكليات كان متروكا لكل شخص بحسب ما يرى من مواهبه وميوله.

لكن لم يفلح إلا واحد فقط في الانتساب للكلية الحربية!! وتفرق البقية، اثنان دخلا كلية الطب، أحدهما هو د. منصور عبد الحميد الذي يشغل الآن رئيس جامعة أسوان، وقد استمر الرجل متدينا وإن لم يكن «إسلاميا» بالمعنى الحركي. والآخر هو عبد الحميد لا يحضرني اسمه كاملا وهو الآن عميد لكلية الطب جامعة أسيوط، والتحق أحمد سالم -رحمه الله- بكلية العلوم وصار فيما بعد رئيسا لقسم الجيولوجيا بالكلية، وكان قد أَمَّل أن يدخل قسم الرياضيات ولكن لما قضى الله بافتراقنا الدراسي دخل الجيولوجيا، وثمة أخ أيضا اسمه سمير التحق بكلية الهندسة وانقطعت عني أخباره، والبقية لا أذكرهم الآن.

كان خروج الجميع لاعتبارات تتعلق بالطول أو بقوة النظر أو باختبارات في كشف الهيئة، والأهم من ذلك أن دخول مثل هذه الكليات كان يتوقف على قوانين أخرى غير مكتوبة، وهي الأقوى والأولى: تلك هي قوانين الوساطة والمحسوبية، ولم يكن لنا من وسائط بطبيعة الحال.

وهكذا تعطلت خطتنا الطموحة في إقامة الدولة الإسلامية عند المطب الأول، ومن هنا تفرقت السبل بالمجموعة بين الكُلِّيَّات، ومرَّت السنة الأولى علينا وقد أخذتنا رهبة الكلية ودَوَّامتها، وكان أولئك الذين دخلوا إلى الطب والهندسة هم الأكثر انشغالا، وقد انشغلت أنا في مسألة إعادة الثانوية العامة بالإضافة لأمور الكلية التي التحقت بها. لقد كان أولئك الشباب متفوقين، والجامعة في سنواتها الأولى تطرح تحديا على المتفوق، الذي يختبر تفوقه حقا بين أقرانه ونظرائه المتفوقين الذين دخلوا معه إلى نفس الكلية، وعادة ما تكون الاستجابة لدى المتفوق أن ينغمر في هذا التحدي الجامعي!

لم يكن لأيٍّ منا في هذه السنة نشاط جامعي يُذكَر، ولا خطر ببالنا أن نكون عناصر قيادية، وإنما كنا نشارك فيما هو موجود، ولم يزل اليسار في تلك الفترة هو صاحب اليد العليا في الساحة الطلابية. ظل التفكير في قلب نظام الحكم حاضرا في عقولنا وقلوبنا لكن السنة الأولى بأحداثها -التي سأذكرها لاحقا- شغلتنا.

وأما الذي التحق بالكلية الحربية فقد انفصل عنا فيما بعد، وآخر اتصال بيني وبينه كان وهو في رتبة الملازم أول، وكنت متابعا لأخباره، وغالب ظني أنه لم يخرج إلى المعاش بعد، إلا أنه على أبواب الستين الآن وليس ثمة داع لذكر اسمه، إلا أن انشغاله عنا كان مُضاعَفًا: غمرة الكلية وسطوة الاتجاه الجديد الذي تفرضه مناهج التربية والتأطير والتشكيل العسكرية السلطوية الدولتية، والتي لا يكاد ينجو أحد

من تحولاتها الجذرية.

لم نستفق من غمرة السنة الأولى إلا في إجازة منتصف السنة، عقدنا أول اجتماع فيما بيننا، بمن فيها هذا العضو الوحيد الذي استطاع الالتحاق بالكلية الحربية، وشهد هذا الاجتماع تحولا في مسار الحلم الطموح، فقد طرح أحمد سالم فكرة تقول: لئن كنا أخفقنا في الدخول للكليات العسكرية فيجب أن تكون مهمتنا القادمة التفوق في الكلية حتى الوصول إلى رتبة الأستاذ الجامعي، فيجب علينا جميعا أن نكون أساتذة جامعيين، لكل منا دوره المؤثر في التغيير من خلال موقعه المرموق، ومهما يكن فإن الأستاذ الجامعي لا يقل أهمية عن ضابط الجيش أو ضابط الشرطة.

تداولنا النقاش حول هذه الفكرة، وكان ثمة ميل عام إليها، أو نستطيع أن نصوغ الأمر بعبارة أخرى: كان هذا الاجتماع هو الذي تحولنا به من المنهج الثوري التغييري إلى المنهج الإصلاحي المهادن، ثم سارت بنا أودية الزمان فانتهى معها المشروع الإصلاحي أيضا.

أستطيع القول الآن إن هذه كانت المحاولة الأولى غير الناجحة في تجربتي الحركية.

أيام الحرب

حرب التحريك!

وقعت حرب أكتوبر في أول أيامي بالجامعة.. لقد كان أول أيامي الجامعية هو اليوم المشهود في التاريخ المعاصر: 6 أكتوبر 1973م.

ذهبت إلى الجامعة يوم 3 أكتوبر، حصلت على سكن خارج المدينة الجامعية، ضمن «رابطة أبناء قنا» في محافظة المنيا، وذلك لأن سني أكبر من الصف الدراسي، وقد ذكرتُ سابقا أنني دخلت الصف الثاني الابتدائي وكان من المفترض أن أدخل إلى الصف الثالث الابتدائي، فبَقِيَتْ فترة الأشهر الستة الزائدة حتى منعتني من التسجيل في المدينة الجامعية كما كان النظام المتبع في ذلك الوقت.

أنهيت إجراءات الالتحاق بالجامعة، ثم حضرنا حفل الافتتاح في يوم السادس من أكتوبر 1973م، وكان هذا الحفل تقليدا تتبعه جامعة أسيوط، يتجمع الطلاب الجدد في صالة الألعاب الرياضية ويخطب فيهم رئيس الجامعة وبعض الأساتذة، وكان رئيس الجامعة في ذلك الوقت محمد حمدي النشار وكان خريج كلية التجارة، وانتهى الاحتفال، وأثناء رجوعنا إلى البيوت كنا نرى حالة غليان في الشارع عند الساعة الثانية وعشر

دقائق، يصيح بعض الناس: قامت الحرب! ونسأل: أي حرب قامت؟! وكنت حينها في أتوبيس خاص بالجامعة ينقل الطلبة بين مباني الجامعة القديمة ومبانيها الجديدة، حتى إذا مررنا على كُشْكٍ صغير كنا نشتري منه الجرائد والمشروبات الغازية نزلتُ من الأوتوبيس وتوجهت إليه حيث اجتمع الناس عنده، وكان صوت المذياع بدأ يصدح بالبيان الأول بعد حرب أكتوبر.

كبَّر الناس جميعا، وكبَّرْنا، وكان أغلب هذا الجمع من الطلاب، وفورا وبتلقائية كنا نقول: يجب ألا تنتهي هذه الحرب إلا بتحرير فلسطين، وسرعان ما تطور هتافنا وهتاف الناس معنا: إلى فلسطين إلى فلسطين. وفي اليوم التالي كانت الخطابات الإعلامية الرسمية تتجاوب مع هذه المشاعر وتتحدث عن فلسطين وتحريرها، وكانت من أروع لحظات ارتفاع الروح المعنوية لدى الشعب المصري، بل ربما لا تشبهها لحظة أخرى، وبلغت الثقة بالجميع أن هذه المعركة هي معركة تحرير فلسطين.

كان كبار السنّ أكثر ترددا وإحجاما عن مشاركتنا هذه الفرحة، لم تزل ذكرى نكبة يونيو 1967 راسية في صدورهم، يتذكرون حين سمعوا أنباء إسقاط الطائرات المتكررة ثم استيقظوا من الوهم اللذيذ على الواقع المر، كان لسان حالهم ومقالهم: وما يدريكم لعل إسرائيل هي التي هاجمت ونحن الذين نندحر. لكن هؤلاء انضموا إلينا حين بدأت الإذاعات العالمية -مثل: بي بي سي ومونت كارلو وصوت أمريكا، وهي الإذاعات الثلاث التي كانت مشهورة في ذلك الوقت- تنقل خبر المعركة وتؤكد أن القوات المصرية صارت في الضفة الشرقية من قناة السويس، وهكذا كان اليوم التالي يوما اجتمعت فيه مشاعر الناس صغيرهم وكبيرهم على الفرحة العارمة والأمل الكبير.

ما لبثت أن جاءت الأخبار بما لا تشتهي السفن، ليست إلا أياما حتى صدر قرار وقف إطلاق النار واستجابت له الحكومة المصرية، كان وقف إطلاق النار طامّة نزلت على

الناس في مصر، لم يكن منهم من يؤيده، ولم يكن منهم من يتوقعه.

ومما يُحسَب لليسار هنا، والذي كان غالبا على الساحة الطلابية وعلى مجمل الحالة الثقافية والإعلامية في مصر، أنه أعلن أن حرب أكتوبر بهذا الشكل إنما هي حرب تحريك لا تحرير، وقد كان السادات بعد عشرة أيام من بداية الحرب قد أعلن في خطابه الشهير (16 أكتوبر 1973م) عن استعداده للسلام ولحضور مؤتمر دولي للسلام سيُقنع القادة العرب والفلسطينيين بحضوره، وقد حاول السادات أن يبدو في هذا الخطاب كالمتحدث من موقع القوة وبدا أنه مصدوم من الموقف الأمريكي وألمح إلى خطورة الوضع بعد الجسر الجوي والبحري الأمريكي المتدفق لدعم إسرائيل. وقد شكَّل هذا الخطاب صدمة للجماهير في مصر التي لم يكن منها أحد مستعدا لسماع قبول وقف إطلاق النار فضلا عن الحديث عن سلام بين العرب وإسرائيل. لكن أحلام الشعوب كانت في واد وحركة السياسة كانت في واد آخر، فقد عملت سائر القوى الدولية بما فيها الاتحاد السوفيتي على وقف إطلاق النار، وفيما بعد حدثت الثغرة وبدأ انقلاب الموقف العسكري لصالح إسرائيل التي بدا أنها قد استوعبت المفاجأة وامتصت الصدمة وبدأت في التقدم من جديد.

حين أتذكر اليوم الأول من حرب أكتوبر أتذكر أن أول بيان صدر من القيادة العسكرية المصرية يقول: قامت طائرات من العدو الإسرائيلي بضرب قواتنا شرق (!) وغرب القناة، وأن طائراتنا المصرية قد تصدت لهذا العدوان وطاردت الطائرات الإسرائيلية حتى فوق سيناء.

كانوا فيما يبدو قد بدأوا يتعلمون فن صياغة البيانات التي تمهد للفكرة أو التي تجعل الموقف العسكري يبدو قانونيا منطلقا من حق الدفاع عن النفس، فكانت الصياغة تحمل معنى أن الأمر بدأ دفاعا لكنه تطور إلى مطاردة الطائرات الإسرائيلية

حتى شرق القناة فوق سيناء، وبعد زمن جاء البيان الثاني الذي يتحدث عن نجاح قواتنا في ضرب قوات العدو، وأنها الآن موجودة في سيناء وأنها تمكنت من عبور قناة السويس. هذا البيان هو الذي كان بمثابة الإعلان عن اشتعال الحرب وهو الذي أشعل الروح المعنوية في صفوف الشعب المصري، وانطلقت الحناجر تهتف باسم القدس ولرفض إيقاف الحرب قبل تحرير فلسطين.

سرى هذا النداء الفطري التلقائي بين الناس في اللحظات الأولى، كأن ثمة شعورا خفيا يجمع بينهم في أن هذه الحرب ستتوقف قبل القدس!! ربما يعود الأمر إلى الثقة المفقودة بين الشعوب العربية وحكامها وهو الأمر الذي يدفعهم لئلا يصدقوا حتى في لحظة الحرب أنها حرب صادقة وحقيقية وستستمر إلى بلوغ هدفها، وربما لهذا الأمر تفسيرات أخرى نتركها لعلماء الاجتماع وعلم النفس السياسي.

نطالب باستمرار الحرب!

لكن المهم هنا أنني وجدتني مع ثلاثة أو أربعة من الطلاب من كليات مختلفة: هذا في كلية العلوم وهذا في كلية التجارة وهذا في كلية الهندسة، وجميعنا في اليوم الأول من الجامعة، وفي لحظة المعنويات المرتفعة، ومع ذلك، فسرعان ما اتفقنا على أن ننظم غدا مظاهرات بالجامعة تطالب باستمرار الحرب، لكن وقفت أمامنا مشكلة غير متوقعة: أن الحرب مستمرة بالفعل! جاء اليوم التالي والحرب مستمرة، ثم اليوم الثالث والحرب مستمرة.. وهكذا لم يعد للمظاهرات التي تطالب باستمرار الحرب أي معنى لأن الحرب مستمرة بالفعل!

طفق الناس يفكرون فيما ينبغي لهم فعله خلاف التظاهر، ومن نافلة القول أن الهبة الشعبية فعلت في الساعات الأولى ما كان ميسورا لها، لقد تدفق الناس

كالسيل على المستشفيات للتبرع بالدم، كان الناس يتبرعون بدمائهم بانهمار غريب يمكن حتى وصفه بالجنون، إن التهاب المشاعر جعل الذين لم يحاربوا يسارعون في «سفك» دمائهم -إن صحَّ التعبير- تضامنا مع أولئك الذين يجاهدون الآن في سيناء.. ومع مرور الأيام الثلاثة والحرب مستمرة والناس تتبرع بالدم ظهرت وانتشرت وسادت أفكار التطوع للقتال ومساندة الذين على الجبهة!

ومع هذا كله فلقد كان جدار الثقة لا يزال غير مكتمل، كان الناس يتابعون الأخبار عبر الإذاعات الأجنبية، يتأكدون من حقيقة العبور وانتشار القوات المصرية من إذاعات لندن وأمريكا ومونت كارلو، بعضٌ من أثر الخديعة الإعلامية في 1967 كان لا يزال حيًّا في النفوس، لكن الأمر يبدو وكأنه حقيقي هذه المرة، ها هي القوات المصرية تتوغل بعمق عشرة كليومترات في شرق سيناء، وها هي الجولان تتحرر ويتقدم فيها الجيش السوري، وتفيد الأنباء أن القوات المصرية تستعد لمواصلة زحفها إلى ممرات متلا!

رغم أن القوات المصرية -كما عرفنا فيما بعد- لم تخطط ولم تنوِ أن تتقدم بعد هذه الكيلومترات العشرة، ولم يكن في خطتها أصلا الوصول إلى ممر متلا إلا أن الإذاعات الأجنبية نقلت أحيانا خبر الزحف أو الوصول إلى ممرات متلا، حتى تلك المصادر لم تكن دقيقة، أو لعلها أرادت إعطاء المبرر والزخم لمعركة الدبابات التي كانت إسرائيل تحشد لها. فالصورة التي كانت تصلنا أن قواتنا في تقدم إلى وسط سيناء وأن إسرائيل تحاول عرقلتها ومدافعتها.

وقد عرفنا فيما بعد أن مصر لم تكن تمتلك أكثر من أربعمائة دبابة، لكن الأخبار والإذاعات كانت تتحدث عن أكبر معركة دبابات تدور الآن، عن ألف دبابة مصرية تواجه ألف دبابة إسرائيلية في سيناء، وكل هذا كان يعطي مزيدا من الزخم للمعنويات المرتفعة في الشعب المصري، والتي تسكب عليها الشعوب من نفسها مبالغات أخرى.

ثم تنتهي معركة الدبابات هذه بأسر القائد الإسرائيلي عساف ياجوري والذي عُرضِت صورته وصورة بعض جنوده على الصحف والشاشات في مصر مما بلغ بمعنويات الناس عنان السماء، وأثبت لهم أن الأمور تسير على ما يرام أو حتى تسير بأفضل من المُتَوَقَّع.

الانكسار

لا شك أنه سقطت من ذاكرتي أشياء مهمة عن هذه المرحلة، لكن الذي أتحقق منه أن معنويات الناس ظلت في ارتفاع حتى خطاب السادات الذي ألقاه في مجلس الشعب (16 أكتوبر) بعد عشرة أيام من الحرب، وفيه طرح مسألة السلام وعقد مؤتمر سلام. هنا انكسرت معنويات الناس ودخلنا في مرحلة أخرى جديدة. مرحلةٌ صرنا نسمع فيها قول الناس: سنخسر دماء الشهداء، ونحوها من العبارات التي تصب في نفس المعنى.

لم يلبث الأمر إلا ساعات بعد خطاب السادات إلا وبدأت تتسرب أنباء الثغرة، وبأن القتال صار عند حافة قناة السويس بعدما كانت الآمال تتابع تقدمه من وسط سيناء إلى ما وراءها، وبدأت الإذاعات تنقل أنباء استعادة الإسرائيليين لمناطق الجولان مرة أخرى، بدأ ميزان المعركة ينقلب وبدأت إسرائيل تستعيد زمام المعركة، ثم جاءت الأنباء بأن القتال يحدث في السويس، ونقلت الشاشات والإذاعات أن جولدا مائير تزور قواتها في الجبهة وتعلن أنها تقاتل من قارة إفريقيا!!

خرج السادات مرة أخرى على الإعلام وقلَّل من أهمية الثغرة، والإذاعات تنقل أن قوات مصرية شرق القناة في سيناء ولكن ثمة قوات إسرائيلية أيضا غرب القناة، إذن فعلى الأقل لم نعد منتصرين والأمر ليس محسوما، برر السادات هذا الوضع وقال بأنه تكتيك وأن ما حققه الإسرائيليون ليس انتصارا استراتيجيا وأنهم محاصَرون أكثر مما

هم مُحاصِرون، وأكد على الوضع المتفوق للقوات المصرية.

لكن الذي أستطيع تأكيده أن البيانات العسكرية كانت مهتزة بوضوح في أيام 22 و23 و24 أكتوبر، وكان يتضح فيها استصراخ العالم لوقف إطلاق النار، كان الشاب منا في تلك الفترة يستطيع أن يميز بسهولة حالة الهلع التي كان عليها الإعلام المصري آنذاك، ولست أدري ما إن كانت هذه هي الحالة العامة الموجودة في الجيش آنذاك أم لا، إلا أنها على كل حال -وكما عرفنا فيما بعد- كانت تعكس الحالة على الأرض، إذ كانت القوات الإسرائيلية قد استطاعت التقدم على طريق السويس واستطاعت حصار الجيش الثالث في جنوب غرب سيناء، وكان النظام المصري ملهوفا على وقف إطلاق النار. وبدا بشكل لا ريب فيه أن إسرائيل امتصت الضربة الأولى وأنها استعادت زمام الموقف.

ذلك ما أتذكره بوضوح من تلك الأيام، بالإضافة إلى الحالة النفسية العامة التي تدهورت بعد قبول وقف إطلاق النار، وبعد تسرب الخلافات التي كانت موجودة في قيادة الجيش كما عرفنا تفاصيلها بعد ذلك مما كان بين رئيس الأركان سعد الدين الشاذلي وبين وزير الحربية أحمد إسماعيل والسادات، وما سوى ذلك لا أستطيع الآن تذكره بوضوح.

منذ لحظة وقف إطلاق النار، بل منذ لحظة بدأ السادات الحديث عن السلام، وبدأت المعارضة تتصاعد ضده، وكانت الجامعة واحدة من أهم المسارح التي شهدت المعارضة الشرسة للسادات.

قاد التيار اليساري حملة ضخمة تُنكر أن يكون السادات بطل حرب أو حتى بطل سلام، وأنه إنما سيبيع القضة للأمريكان، وقد دُعِم هذا الكلام حين خرج السادات فيما

بعد وصرَّح قائلا بأن 99% من أوراق اللعبة بيد الأمريكان، ثم دُعِم أكثر حين زار نيكسون الرئيس الأمريكي القاهرة في ربيع عام 1974م كنوع من الدعم والتأييد لموقف السادات، لكنها الزيارة التي أثبتت أن مصر قد تحولت إلى المعسكر الأمريكي وتخلت تماما عن المعسكر السوفيتي، وأن حرب أكتوبر التي استبشر بها الجميع قد انتهت إلى النتيجة التي لم يتوقعها أحد، وهنا تختلف التفسيرات: هل كانت من البداية حرب تحريك لا تحرير وكان مصيرها هذا مخططا سلفا عند قادة السياسة الكبار؟ أم أنها بدأت حرب تحرير ثم انتهت حرب تحريك وتمهيد لإنهاء ملف الصراع مع إسرائيل بل ولفتح ملف التطبيع والسلام معها؟ هذا أمر نتركه للمؤرخين.

التطور الكبير!

ارتبط دخولي إلى الجامعة بهذه الحرب، وارتبطت أيامي الجامعية بالمعارضة التي انبثقت في أرجائها اعتراضا على سياسة السادات، ولقد كان ذلك يمثل لي تطورا دراميا شديدا، لقد كان خروجا من عصر عبد الناصر الذي كانت معارضته تكلف كثيرا في قرية نائية إلى عصر السادات الذي كانت معارضته ممكنة وصاخبة في ساحة ضخمة ومركزية كالجامعة.

وقد ترافق هذا مع تطور درامي آخر على مستواي الشخصي، فهذا ابن القرية النائية المغمورة وجد نفسه فجأة في مدينة ضخمة مثل أسيوط، نقلة أشبه بالصدمة الحضارية، وهذا ابن المدرسة الصغيرة المحددة الحصص والمحكومة النظام وجد نفسه في الجامعة الفسيحة المتراخية النظام والقيود، وهذا ابن الفصل الصغير يجد نفسه في المدرج الواسع المهيب، وهذا التلميذ الذي قد اعتاد التعامل مع أستاذ الفصل في المدرسة يجد نوعا آخر من الأساتذة في شخصية وأسلوب وطباع أستاذ الجامعة، وهذا ابن القرية المنضبطة أخلاقيا والتي ينتصب فيها حاجز واضح بين الرجال والنساء يجد هذا الاختلاط بين الشباب والفتيات في الجامعة وفي ظل انعدام رقابة أبوية لطالما اعتاد عليها حتى شكَّلت جزءا من نفسيته وتفكيره وإذا هي الآن غائبة مفقودة.

لولا وجود «السيكشن» لانتفى كل شبه بين المدرسة والجامعة، لكن هذه «السكاشن» ذَكَّرتنا بفصول المدرسة الصغيرة وأعداد الطلاب المحدودة.

كنت أحتاج وقتا حتى أستوعب هذا التغير في حياتي وأتعرف على هذا المجتمع الجديد كليا على تصوراتي، لكن الحياة لا تترك لأحد وقتا، وسرعان ما دخلت في المعمعة، ووجدتني في أيام الجامعة الأولى أخوض اشتباكا مع أستاذ القانون حول الشريعة الإسلامية!

دفاع عن الشريعة والأئمة

أول ما أتذكره من أيام الجامعة ذلك النقاش الذي اندلع مع أستاذ القانون حول الشريعة الإسلامية، وقد كان من محاسن الجامعة ذلك التقارب الذي يكون بين الطالب والأستاذ الجامعي، فإنه أفضل من العلاقة الأبوية التي بين تلميذ المدرسة والمُدَرِّس، وذلك أنك تستطيع الحديث مع أستاذ الجامعة في أي وقت، تطرح وجهة نظرك، تجادل فيها، تناقش المادة نفسها ومعلوماتها ولا تتعامل معها كأنها مقدسة كما هو الحال مع المادة في المدرسة، وذلك هو ما شجعني لبدء هذا النقاش.

غاب عني الآن اسم الأستاذ، لعل اسمه كان «محمود سلام زناتي»، وكان عميدا لكلية الحقوق، لكنه كان يُدَرِّس لنا مادة «مبادئ القانون» في كلية التجارة، وكانت تشتمل على جزء من القانون البحري أو القانون التجاري، لا أتذكر الآن بدقة، على أن مقدمة هذه المادة جاء فيها أن «الشريعة الإسلامية هي المصدر الثالث للتشريع» أو نحوا من هذا، فاستفزني هذا الكلام، فذهبت إليه في الاستراحة التي تكون بين جزئي المحاضرة، وفيها كان الطلاب يذهبون فيسألون الأستاذ، وقد كانت شخصيته لطيفة فكان يجيبهم ويبش لهم، فعمدت إليه ومعي الكتاب، وانتظرت حتى فرغ

الطلاب من حوله، ثم دار بيننا هذا الحوار، قلت له:

- لو سمحت حضرتك، أريد أن أسأل سؤالا
- تفضل يا بني
- أنت تقول في المذكرة أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الثالث للتشريع.. هذا صحيح؟
- نعم، صحيح!
- الشريعة الإسلامية المصدر الثالث للتشريع؟!!
- نعم!
- الشريعة الإسلامية!! المصدر الثالث!!! للتشريع؟!

زاد استغرابه، وصار لا يفهم ما أقول، فقال بنوع جدية وصرامة:

- أين السؤال؟!

فقلت له وأنا سادر في أسلوبي:

- يعني لم تدرك السؤال بعد؟!
- عيب يا بني.. عيب! ما هذه اللهجة وما هذه الطريقة في الكلام.. من أين أنت؟
- من أرمنت، قنا (وأنطقها بلهجتي الصعيدية التي تُنطق فيها القاف كأنها جيم قاهرية)
- أين أرمنت قنا هذه؟!
- ألا تعرفها.. لا تعرف أرمنت، قنا؟!

- لا، لا أعرف
- مركز أرمنت، محافظة قنا.
- آها، نعم، محافظة قنا معروفة.. المهم، أين السؤال، عم تريد أن تسأل؟
- حضرتك تقول: الشريعة الإسلامية المصدر الثالث للتشريع، هل هذا صحيح؟!
- نعم، هذا صحيح، أنا أقول هذا فعلا، ما الذي يعسر عليك في فهم هذا؟!
- أنا معترض على قولك: إن الشريعة الإسلامية المصدر الثالث للتشريع.
- حسنا، فماذا تريدني أن أقول؟ هل تحب أن أقول إنها المصدر الأول؟
- نعم، يجب أن تقول: المصدر الأول
- ولكنها ليست كذلك، ليست المصدر الأول
- ليكن، ليكن أنها الآن ليست المصدر الأول، لكن هل أنت مقتنع أن مكانها الطبيعي أن تكون المصدر الثالث؟! هل يليق بالشريعة أن تكون المصدر الثالث برأيك؟ أم أنك تسير مع الوضع الحالي الذي جعلها المصدر الثالث؟
- رد بتجهم: أنت تكثر القراءة في الكتب الصفراء!

لم أفهم إشارته وتلميحه، ولم أكن أعرف أن الكتب الصفراء مصطلح يطلق على كتب التراث الإسلامي، وتصورت أنه يقصد الكتب التي ورقها أصفر كالكتب القديمة المطبوعة على الورق الأصفر، وقع في ذهني المعنى المباشر للألوان، وهو ظاهر الكلام، فأجبته ببراءة ولهجة دفاعية:

- لا والله العظيم، أنا لا أقرأ أبدا في كتب صفراء.. أنا...

وجد الدكتور نفسه أمام طالب وبينهما فجوة في التواصل! فقال بلهجة ودود:

- الشريعة الإسلامية يا بني لا تصلح أن تكون مصدرا مستقلا في التشريع

- لكن هذا الكلام غلط يا دكتور

- أين الغلط يا ابني؟

- هذه الشريعة الإسلامية أنزلها الله تعالى

- من قال لك: أنزلها الله؟! الشريعة الإسلامية هذه هي أقوال الفقهاء، مجرد اجتهاد بشري، مجرد فهم للنص، وأنا فقيه.. أنا من فقهاء الأمة! وأنا أفهم النص مثلما كان يفهمه الإمام أحمد والإمام الشافعي والإمام مالك وهؤلاء الفقهاء

- لا طبعا.. كيف؟ كيف تُسَوِّي نفسك بهؤلاء الأئمة؟

- وما أدراك أنت بهؤلاء؟ هل تعرفهم؟ هل تعرف أنت مالك والشافعي وأحمد؟ هل قرأت لهم شيئا؟ هل إذا أعطيتك الآن مجموعة من كتبي مثل كتبهم.. هل تشهد أني أفهم مثلهم؟!

أصابني الارتباك، كان موقفا غريبا وغير متوقع، رجل يقول إنه مثل مالك وأحمد، ويفهم مثلهم.. لكني مع ذلك تماسكت وقلت:

- لا، حضرتك لديك علم في القانون الوضعي الذي تُدَرِّسه، لكن لا يمكن يكون لديك من علم الشريعة مثل أحمد ومالك وهؤلاء الأئمة، هؤلاء أخذوا علمهم من القرآن والسنة.

- نحن أيضا مصدر علمنا الكتاب والسنة، كيف تتخيل العلم الذي لدينا؟ القانون الفرنسي نفسه مأخوذ عن الشريعة الإسلامية، ثم نُقِل إلينا بهذه الكيفية، ففي الواقع فإن العالم كله يحتكم إلى الشريعة الإسلامية حين يحتكم إلى القانون الفرنسي.

هنا أصابني الانبهار، وأخذني مسار الكلام لأعجب به، لقد رسم لي أن العالم كله

يحتكم إلى الشريعة الإسلامية، وكفى بهذا فخرا ومصدر سعادة.. ومع ذلك فقد كان شيئٌ ما في نفسي يرفض هذا، ويراه تلفيقا أو تزويرا أو كلاما غير مقبول، فعاودت أقول وأرد:

- لا.. لا يمكن أن يكون هذا القانون هو القانون الإسلامي

- يا بني، أنا عميد كلية الحقوق، وعندما أقول لك: إن القانون الفرنسي مأخوذ من الشريعة الإسلامية، فأنا أعلم ما أقول!

في هذه العبارة الأخيرة احتد عليَّ، وارتفع صوته في النقاش، وما كنتُ لأستغرب هذا، فمثل هذا الحوار والجدال لم يكن ممكنا أن يدور مع مُدَرِّسٍ في المدرسة، وها هو يدور بين طالب وعميد لكلية الحقوق، ومع أن الرجل أفحمني وأسكتني، ومع أني لم أعد أعرف بم أجيب ولا كيف أرد، إلا أنني بقيت على انبهاري بالرجل وإعجابي به. ثم مع ذلك فقد كرهت مادة القانون، وعزمت ألا أحضر هذه المحاضرة!

كنت مبهورا نعم، لكن أيضا لم أبتلع قوله بأن تكون الشريعة هي المصدر الثالث للتشريع، ثم إن له فلسفة تُعْجِزُني، والعجز يضيق به الصدر ويسبب أزمة، ما هذا الرجل؟! هل يمكن أن يكون فعلا كالإمام أحمد أم أنه يريد بهذا تشويه علماء الشرع حين ينزل بهم إلى نفسه؟! هل له فعلا مثل إنتاجهم؟! هل يمكن أن يكون له مثل فهمهم وعلمهم بالدين؟!.. أمور لم أستطع أن أبتلعها وإن أسكتني حواره، وكان الحل الأسهل أن أتجنب هذه المادة وصاحبها.. وقد كان! ثم كانت بعد ذلك آثارها، لقد ظللت أرسب في هذه المادة ثلاث سنوات متتاليات!

ويبدو أن ذلك الحوار قد طبع صورتي في ذهنه، فقد شاهدني ذات يوم وأنا داخل إلى المدرج فنادى عليَّ، ثم سألني: لم لا تحضر معنا؟ فأجبته باقتضاب وأنا أتملص من

الموقف: سأحضر سأحضر، ثم سارعتُ منصرفا.

في صفوف اليسار

ومن المفارقات، أني وبعد هذه المحاورة التي أبدو فيها كإسلامي متشدد، ما لبثت أن انخرطت في صفوف التيار اليساري، ناشطا طلابيا!

ومن المفارقات أيضا أني لم أحاول فيما بعد هذا الحوار أن أعود إلى الكتب فأقرأ لأردَّ عليه، استمر شأني في القراءة كما هو، القراءة المتنوعة غير الموجهة، لكن لم أقرأ بغرض الردّ عليه، كأن الحوار لم يستفزني للرد رغم أنه أعجزني وأضاق صدري، لقد وقر في نفسي أنه أستاذي وكيف أردّ عليه؟!

أتذكر أني كنت في تلك الفترة اقرأ في الكتب الإسلامية عموما، وأقرأ تفسير القرآن لابن كثير، ومقدمة ابن رشد التي هي بداية المجتهد ونهاية المقتصد، وكتاب أصول الفقه الصغير الذي ألفه الشيخ محمد خلاف. كانت هذه الكتب الثلاثة تلازمني في المرحلة الثانوية، ثم في أول سنة بالجامعة كنت أقرأ فيها فيتحسن فهمي، ثم اشتريت كتاب «الأم» للإمام الشافعي، وبمرور الوقت بدأت تتكون ملكة القراءة في كتب السلف، لا سيما في المعسكرات الطلابية ومعارض الكتاب الإسلامية، ولقد أعطى نشاط التيار الإسلامي في السبعينات دفعة هائلة لمثل هذه الميول.. لكن هذا سيأتي فيما بعد!

أما قصة انضمامي إلى التيار اليساري فكان السبب فيها أني بطبعي شخص نشط، ولا أستطيع الخمول والسكون، وفي ذلك الوقت لم يكن قد بدأ النشاط الإسلامي في الجامعات، بل كان النشاط يكاد يكون حكرا على اليساريين، نعم.. كان هناك ثمة جماعة ضعيفة اسمها «الجماعة الدينية» إلا أنه يغلب على أفرادها التوجه الصوفي

والتوجه الأمني كذلك، كان معظمهم صوفية وتابعين للأمن! كنت أعرف الصوفيين بما لدي من تجربة قديمة في الصوفية، لكنْ (التابعون للأمن) كان تصنيفا جديدا أخذته من الرفاق الشباب اليساريين حين كنا نعمل معا.

ومع هذا فلم يكن أولئك التابعون للأمن عتاة أو دهاة، إنما كان توجههم الصوفي ينزع بهم إلى ذلك كما ذكرت سابقا من أن التدين في عصر عبد الناصر كان ذا مسحة صوفية وأن هذا كان مطلب السلطة لتوظيف الدين ضمن سياستها، ولقد كان مألوفا أن يكون المرء اشتراكيا وصوفيا معا كما سبق الحديث. ثم إن هذه الجماعة الدينية ضعيفة وخاملة ولا نشاط لها، إن أفرادها يُعرفون بالتزامهم الصلاة وبمجلة حائط ضعيفة متهالكة لا تسمن ولا تغني من جوع. وهو ما يخالف طبعي ويجعلني نافرا من حالة السبات هذه!

أما اليساريون فأصحاب نشاط وحركة، يصدرون عددا من مجلات الحائط، بل لقد كنتُ أصدر مجلة حائط وحدي، إعدادا وتنفيذا، وقد شاركوا فيها وكانوا يدعمونني، وكانت الجامعة تشهد حرية طلابية، وقد كان الطلاب اليساريون يُجَهِّزون معرضا ويتكلمون فيه عن السادات والحرب والحق في الخبز والعدالة الاجتماعية والأزمة الاقتصادية والبلد التي تعاني من المجاعة والشعب الذي يعضه الفقر، يتكلمون أحيانا أخرى عن الطالب المصري، وأزمة الكتاب لدى الطالب المصري، أزمة التعليم لدى الطالب المصري، ما الذي يتلقاه الطالب في مصر من المناهج الضعيفة غير العلمية غير المركزة.. إلخ!

كان اهتمامهم منصبا على المشاكل التي تمس الحياة اليومية، إضافة إلى البعد السياسي، وقد كان للسادات نصيب الأسد من نقدهم وهجومهم. وكان هذا ما يجذب إليهم، وهو من جملة ما جذبني كذلك.

ولقد كان العمل العام عندي طبعا وجبلة، لم يعلمني إياه أحد ولم آخذه عن أحد سبقني، منذ نعومة أظافري وجدتني توّاقًا لخوض هذا الغمار العام، وهكذا كان حالي في المدرسة الابتدائية والمدرسة الإعدادية والمدرسة الثانوية، لدي الجرأة لأبادر وأقول وجهة نظري، ولهذا لم يكن الاهتمام بالشأن العام أمرا غريبا عليّ في مرحلة الجامعة، لكنني كنت أبحث عن الباب، وعن الأصحاب، لقد كنت أبحث عمن أعمل معه، إلا أني لم أجد!

كانت الجامعة يومئذ تكاد تكون خالصة لليساريين، هم أصحاب النشاط والصوت العالي، وهم أصحاب العمل العام، فلم أجد مجالا للعمل مع آخرين، وبينما لا زلتُ جديدا في الجامعة ولم أتعرف جيدا على الوسط المحيط، قررتُ أن أنفذ مجلة حائط وحدي! لا أتذكر الآن ماذا كان اسمها؛ لكن الذي يهمّ هو أنها كانت خارج سياق النشاط العام في الجامعة، ولم يساعدني فيها إلا بعض الشباب أو الزملاء العاديين ممن ليس لهم اتجاه سياسي، ولقد كنتُ حريصا أن تكون هذه المجلة شهرية وأحيانا نصف شهرية. كنتُ خطاطا جميل الخط، كما كنت ذا قراءة ونظر فكنت صاحب المجلة مادة وتصميما، وربما جمعت لها المقالات وربما شاركني شابٌ في عدد منها.

من هاهنا لفتُّ أنظار الذين كانوا يُعَلِّقون مجلات الحائط، أنا أُعَلِّق مجلتي الوحيدة وهم يعلقون أربعا أو خمسا، ومعهم من يتولى شرح ما في مجلاتهم وترويج فكرها بين الطلاب القارئين، وأنا وحدي لسان مجلتي وشارحها، ومن هاهنا كانت بداية التعارف!

- من أنت؟
- رفاعي طه

وبعد التعارف سألني:

- لماذا لا تعمل معنا؟

- من أنتم؟

- نحن طلاب، ونحن معارضون للنظام.

ثم أخذ يتحدث عن توجهاته، أنا أسأل وهو يجيب، ثم قال:

- يمكنك أن تعمل معنا بدلا من عملك منفردا، ويمكن لك أن تكتب في مجلاتنا

- موافق.

كانت مجلتي ذات نَفَسٍ سياسي ولكنها ليست متخصصة في السياسة، ولا كان لها ذات السقف العالي المعارض المعروف لليساريين، كانت متنفسي ونشاطي، فكنت أكتب فيها ما يعنّ لي في السياسة أو في غيرها، أعبر فيها عن نفسي ورأيي أولا وأخيرا، كما يتضح فيها النفس الديني الواضح، لتديني الشخصي، ولما تكوَّن لدي في فترات حياتي السابقة.

عرفت فيما بعد أن محدثي هذا لم يكن يساريا فحسب، بل كان شيوعيا أيضا! وعرفت أن هذه المجموعة التي كان يحدثني عنها هي التي نعرفها باسم «مجموعة العمال المصريين» وهم مجموعة شيوعية، تابعة لحزب «العمال المصريين الشيوعي»، فسألته:

- أنتم طلاب، فلماذا تسمون أنفسكم بالعمال؟

- نحن امتداد لحزب العمال المصريين

- وما هي أنشطتكم؟

- هذا الذي تراه، البلد كما ترى ينتشر فيها الظلم والاستبداد ونحن ضد الظلم والاستبداد، وهؤلاء كما ترى تقاسموا البلد وقَسَّموا الأمة وأفقروا الشعب، وهذا الظلم

الاجتماعي الذي لا بد أن نستبدل به العدالة الاجتماعية.

- هذا شيء حسن، ولا خلاف عليه، ولا يسعني إلا أن أشارككم فيه.

في هذا الوقت لم أكن أستعمل لفظ «العدالة الاجتماعية»، ربما تكلمنا عن تقاسم الثروة وتوزيع الثروة ونحو ذلك، وأن الناس سواسية، وأن الله عز وجل خلقهم كأسنان المشط، ونحو هذا من المقولات، وكان هذا القدر المتفق عليه بيننا هو القدر الذي نتعاون فيه.

وخرجت من اليسار..

مع مرور الأيام بدأت أنتبه إلى أن هؤلاء الشباب ليسوا متدينين، وفي ذلك الوقت كانت الجامعات المصرية تشهد قدرا هائلا من الانحلال الأخلاقي، كانت مصر كلها لا تزال في سطوة الأفكار الشيوعية واليسارية التي هي ضد الدين أساسا، ولعل تسعين بالمائة من شباب ذلك الوقت لم يكن متدينا أصلا، وينتشر بينهم الزنا والمخدرات، والحمد لله الذي عصمني وكرَّه إليّ هذه الأشياء، فلم أقترف بحمد الله شيئا من هذا.

كان الزنا في ذلك الوقت أسهل منه الآن في الجامعات، بل ولم يكن عيبا لدى العديد من الشرائح، وكانت العلاقة بين الفتاة وزميلها في الحزب تشهد من التبسط والانفتاح ما يجعل ممارستهما الزنا أمرا طبيعيا باعتبارهما زملاء في الحزب أو في الفكرة، ولا بأس أن يسافر معها وتسافر معه، ولقد كان اغتراب البنات في دراستهن الجامعية مما يتيح لهن حرية واسعة وكنَّ يستغلّن ذلك أسوأ استغلال أحيانا! فذلك الأب الذي أرسل ابنته للجامعة لا يتاح له شيء من الرقابة عليها.

ومهما قيل في الرقابة التي تفرضها إدارة المدن الجامعية إلا أنها في النهاية يمكن

التنصل منها والالتفاف عليها، فهذه التي ستسافر -مثلا- في رحلة جامعية، لن تملك إدارة المدينة لها شيئا وليس بيدها أن تمنعها، أو حتى يمكن للفتاة أن تقول لهم بأنها عائدة لبيتها فيما هي تنوي شيئا آخر، غاية ما في شأن الرقابة بمساكن المدينة الجامعية هو ضبط وقت الدخول مساءً، لكن أين كانت الفتاة طوال النهار؟ فهذا ما لا يتدخل فيه أحد.

كان الشباب في تلك الفترة على هذا النحو من الانحلال الذي رسَّخت له دولة عبد الناصر: ثقافتها وإعلامها وأفلامها ونخبتها الاجتماعية، لكن الشاهد هنا أن هؤلاء الشباب لم يكونوا متدينين، لا بمعنى أنهم غير ملتزمين بالدين كسائر الشباب، لقد اكتشفت أن انحلالهم هذا هو علامة على الكفر! إنهم ليسوا شبابا تغلبه شهوته أو يساير التيار مع علمه بأن هذا حرامٌ دينيا أو لا يصح أخلاقيا أو لا يُقبل اجتماعيا... لا! هؤلاء في هذا الحزب كانوا غير متدينين بمعنى أنهم لا يؤمنون بالدين أصلا!!

عرفت هذا يوم دخلت نقاشا مع أحدهم، كان اسمه سعيد، فقال لي: ليس الخلاف بيننا كبيرا يا رفاعي، أنت عندنا ممن نسميهم «المثاليين»، ثمة مثاليون وغير مثاليين (كان يُطلق على غير المثاليين اسما آخر ذهب عني الآن)، ومن ثَمَّ فليست لدينا مشكلة معك.

تطرق الحوار بيننا حتى وصلنا لقضية الإله: هل هو موجود أو غير موجود؟ فقلت له: هذه قضية لا يمكن أن أتشكك فيها، فقال: إنما ذلك لأنك لا زلت محصورا في اعتقاد قديم مسيطرٍ عليك، وهو اعتقاد لا تملك عليه دليلا، ما الذي يجعلك ترى الإله حقيقة؟!

قلت: بالعكس، كيف تثبت أنت أن الإله غير موجود؟ فإن كل ما حولنا يثبت وجوده،

مجرد وجودنا هنا وكلامنا الآن معا دليل على وجوده، إننا ننطق ونتكلم ونرى، وغدا سنموت.. ما معنى هذا كله؟ معناه البسيط المباشر أن ثمة قوة أكبر منا موجودة وقائمة هي التي مَكَّنَتْنا من النطق والرؤية وهي التي تميتنا.. أنت، ماذا تسمي هذه القوة الكبرى؟ هيا.. ضع لها اسما!

قال: إنها الطبيعة، تنتج كل هذا و... و... إلخ هذا الحديث الذي كانوا يحفظونه ويُحَفِّظونه لأنفسهم.

قلت: الطبيعة لا يمكن أن تخلق كائنات حية بهذه الكثافة الموجودة في كل مكان. لكني دعني أُسَلِّم لك أنه لا إله، ولا آخرة، ولا جنة ولا نار ولا شيء على الإطلاق.. هب أننا متنا الآن أنا وأنت ثم صحونا يوم القيامة فاكتشفنا أنها قيامة وأن ثمة جنة وثمة نار، ماذا ستفعل حينئذ؟!

قال: لن أفعل شيئا، ولم قد يُدخلني النار؟ ألست تقول بأن ربنا عادل؟ لئن كان عادلا فسيدخلني الجنة!

أجبته مندهشا: حقا؟!!!

ربما لن يصدق القارئ مثل هذا الحوار، إلا أنه كان يجري فعلا على هذه الطريقة، كان يظن أنه يستحق الجنة طالما أنه لم يفعل شيئا يؤذي البشرية! يقول: منذ أن عرفت نفسي لم أؤذِ البشرية، وعليه فيجب أن يدخلني الجنة.

قلت له: كيف هذا؟! إنني الآن لو سببتك مرتين أو ثلاثة فسيثير هذا غضبك وربما لم تتحمل فعاجلتني بالضرب والعراك، فما بالك وأنت تشتم الذات الإلهية، تقول: ليس إلها، وليس موجودا، وليس يدبر الكون.. كيف تريد بعد هذا ألا يدخلك النار؟! هل بعد هذه النار من عدل؟! لئن كنتَ تقول بأن الله عادل فأبسط مقتضيات العدل أنه يُدخل الصالح الجنة ويُدخل الطالح النار، أما إن كان الصالح والطالح يدخلان الجنة أو يدخلان

النار فليس من عدل هنا على الإطلاق! هذا أمر ضد العدل نفسه!

انتهى هذا الحوار عند هذه النقطة.

كانت حواراتنا تسير على هذا النمط الذي نجتهد فيه في هذه المرحلة المبكرة، لكن أبرز مظاهر الخلاف كانت تتجلى في المسائل الأخلاقية. وبقيت معهم هذه السنة الأولى ثم الثانية من كلية التجارة.

مما أتذكره أيضا حوارا آخر مع أحدهم، واسمه جمعة، وكنا نتكلم ذات يوم عن الجن والملائكة والغيبيات والسحر، ونحو هذه الأمور، ولم يكن هو مؤمنا بأيٍّ من هذه الغيبيات، قلت له:

- ألست؛ لا تؤمن بهذه الأشياء: السحر والجن والملائكة لأنها غيبيات؟
- بلى
- فهل إذا ثبت لك شيء منها، هل تؤمن بالبقية؟!
- نعم!
- حسنا، لن أستطيع أن أثبت لك الجن والملائكة، لكني أستطيع أن أثبت لك وجود السحر، ولي عليك أنه إذا ثبت هذا أن تؤمن بالجن والملائكة وعالم الغيب.. اتفقنا؟
- اتفقنا.

تركته ومضيت إلى رجل أعرفه كان يتعامل مع الجن، وذكرت له أن صديقا لي يقول كذا وكذا، وطلبت منه أن يدبر شيئا ما، أيَّ شيء، يخرج من بعدها صاحبنا هذا وقد آمن. وافق وقال:

- انتظروني يوم الثلاثاء القادم، سآتيكم.

- ماذا ستفعل؟
- لا تشغل بالك
- لا.. لا أدخل في رهان خاسر، يجب أن تخبرني ماذا ستفعل؟
- سأجعله يضع يده اليسرى على فخذه الأيسر، ثم أقرأ بعض التعاويذ، وسترتفع يده غصبا عنه.
- وماذا إذا قاوم؟
- لن يستطيع.. ولو قاوم فستُكْسَر يده!
- متأكد؟
- متأكد.. ما رأيك أن تجرب؟
- (في خوف ورهبة) لا.. لا أجرب، أنا مؤمن والحمد لله!

مع أني لا أؤمن بخرافاتهم هذه إلا أني وجدت فيه وسيلة لكي آخذ صديقنا جمعة إلى الإيمان بالغيب، وكان صاحبنا صاحب التعاويذ هذا اسمه عبد السلام، وحضر إلينا حسب الاتفاق. وعبد السلام هذا -بالمناسبة- لم يكن متدينا، ولكي نعرف مقياس التدين فأنا كنت أصلي وأصوم فحسب ومع هذا كنت متدينا بمقاييس هذا العصر!

جاء عبد السلام وجاء جمعة، وضع يده على فخذه، وقال له: إذا شعرتَ أن يدك ترتفع فلا تقاوم حتى لا تتضرر، وبينما جمعة يضع يده ويراقب ألا ترتفع فعبد السلام يقرأ تعاويذه وينظر بقوة إلى عينيه، ثم يقول له: لا تقاوم.. قد أخبرتك ألا تقاوم، لا تحاول..

في النهاية ارتفعت يده فعلا..

هل كان هذا نوع من التأثير النفسي؟ أم نوع من تسخير الجن.. لا أعلم!

المهم أني كسبت الرهان، وهتفت في جمعة: ها؟ آمنت بالملائكة والجنة والنار أم ماذا؟!

تمتم وتلعثم ولم يحر جوابا: لأ.. هو.. أكيد أنتم... لأ.. لأ، يجب أن أتكلم مع آخرين. ثم لم يؤمن!!

هكذا كان الحال مع التيار اليساري في ذلك الوقت.

الاختراق الأمني للجماعة الدينية

وأما تعرفي على الجماعات الدينية في الجامعة فقد كان اجتهادا مني، وكان البحث عنهم أمر يغلب عليه الظن لا اليقين، أو كما يسمونه الاجتهاد الغالب، لقد كانت هذه المجموعات الدينية كما يبدو تابعة للجامعة أو لأمن الدولة، أو لا بد أن يكون بعض عناصرهم على الأقل موجودا في هذه المجموعات الدينية لسبب ما، ولست أدري على وجه اليقين الآن ما إن كانت الفكرة الرائجة يومها أن الجماعات الدينية مُشَكَّلة أصلا بيد إدارة الجامعة أو الأمن أم أنها تتشكل من تلقاء نفسها، لكن لا بد أن تكون مخترقة أو مُوَجَهَّةً بيد هؤلاء؟!

وقد كنتُ ذكرتُ أن هذه المجموعة الدينية كان يغلب عليها النمط الصوفي، وهو اتجاه لا مشكلة عنده في التعامل المباشر المفتوح مع إدارة الجامعة أو أجهزة أمن الدولة، بل إني تعرفت على ضابط مهم في أمن الدولة من خلال هذه المجموعات، كان اسمه الحركي: عادل، وقد اكتشفت أنه ضابط فيما بعد، أتذكره جيدا كان يربي مقدمة لحيته (نسميها في مصر: سكسوكة) وكان يأتي إلى الجامعة كأنه طالب في كلية التجارة، وأتذكر نقاشا جرى بيننا بشأن وقف الحرب أو السلام الذي يُرَوِّج له السادات،

وقد كنا ساعتئذ نهاجم هذا السلام ونهاجم السادات أيضا، وكان أصل النقاش قد ابتدأ بينه وبين أحمد كمال، وأحمد كمال هذا زعيم طلابي يساري مشهور وقتها، ومن كان في مثل سني الآن فهو يتذكره قطعا إذ كان واسع الشهرة في ذلك الوقت، وقد احتد الجدل بينهما حتى دخل إلى تبادل الشتائم، ثم ما لبث أن صاح فيه أحمد كمال: من أنت أصلا؟ أخرج لي هويتك؟ أغلب الظن أنك ضابط أمن دولة أو ما شابه.

ولما انتهى الحوار بينهما قلت لأحمد كمال: كلامك غير منطقي، كيف تتهم زميلنا الطالب بأنه ضابط أمن دولة؟! فأشار إلي إشارة من يريد إسكاتي وفي عينيه نظرة رثاء لسذاجتي وقال: اسكت.. اسكت يا حاج! (وكلمة «حاج» في هذا الموقف تعبير عن التدين الساذج).

لكن لم يلبث أن صحَّت فراسة أحمد كمال (أو صحَّت معلوماته) إذ ما هي إلا أسابيع أو أشهر إلا وأُخِذْتُ مع مجموعة اليساريين إلى أمن الدولة، ولا أتذكر الآن ما السبب الذي لأجله جرى اقتيادنا، لكني أذكر أني وجدت هذا الضابط هناك، وبادرني بالقول: كيف حالك يا رفاعي؟!.. أنت رجل طيب!

فسألته: حيث إنك ضابط أمن دولة فما حكاية عادل هذه؟ فضحك وقال: ها أنت قد عرفت الحكاية! بل ورأيتها رأي العين!!

واكتشفت في تلك الزيارة أنه ذو ثلاثة أوجه، وجه الطالب في كلية التجارة، ووجه عنصر الجماعة الدينية الصوفي الطيب الذي يراقبها ويتابعها ويوجهها، ووجه الطالب المشاكس للتيار اليساري في الجامعة.

اقتصر النشاط مع الجماعة الدينية على مجرد الصلاة في جماعة، والتعارف فيما

بيننا، لم يكن ثمة نشاط يذكر، فليس ثمة رحلات أو نزهات أو حتى جلسات قرآن أو طلب علم، وكنت بطبعي نافرا من نشاط الرحلات هذا، ولقد قضيت السنوات الخمس في الجامعة فلم أخرج إلا مرة واحدة في رحلة، وإنما غاية ما قد يُسَمَّى نشاطا أن ننظم معرضا للكتاب في الجامعة، نأتي بكتب إسلامية ونبيعها، وما سوى ذلك خمول.

لكن الذي استهواني أولئك الوافدون على الجامعة مثل الشيخ عبد الله السماوي.. ولهذا قصة!

بيعتي الأولى للشيخ عبد الله السماوي

ذات يوم في الإجازة بين السنة الأولى والثانية نَظَّم اتحاد الطلاب في كلية التربية بجامعة أسوان معسكرا طلابيا في الصيف، مثله مثل سائر المعسكرات التي توسعنا فيها فيما بعد، تكون فعالياتها أنشطة تربوية، الصلاة والصيام ودروس يلقيها بعض المشايخ الذين يأتون بهم إلينا، وفي هذا المعسكر تعرفت على طالب معنا في كلية التجارة جامعة أسيوط، اسمه عبد التواب طه أحمد وكان هو من أسوان، واندهشت لأنه معي في الكلية ولست أعرفه ثم اتضح أنه كان يسبقني بسنة.

وفيما نحن في التعارف قلت له: أنا صوفي. فتجهم قليلا وقال: لا، دعك من الصوفيين، إنهم سيئون.

ثم تعرفت في نفس هذا المعسكر على أخويْن آخريْن سيفيدان كثيرا فيما بعد في العمل الإسلامي، الأول: أبو بكر محيي الدين بلال، والثاني: أحمد الزيات، وهذا الأخير هو أخو منتصر الزيات (المحامي الإسلامي المعروف)، والأول نسيبهما، وهكذا ابتدأت علاقة ستتطور بيني وبين هؤلاء الثلاثة منذ ذاك الوقت.

حين ابتدأت السنة الثانية وعدت إلى أسيوط، بدأت أصلي في مسجد الجمعية الشرعية، ولم أتذكر أو أفكر في أن ألقى عبد التواب، ولكني في هذه الجمعة وجدت على المنبر خطيبا جديدا، طويلا جسيما، أبيض اللون، ذا شعر أسود جميل ولحية سوداء جميلة، وثيابه بيضاء جميلة، وكان خطيبا مفوها، أذكر من خطبته تلك قوله: تقولون نأكل عيشنا؟! ألا فلتأكلوا برسيما!

فتعجبت منه، أعجبني أولا شكله ثم خطابته وأسلوبه، وما إن انتهت الصلاة فجلست حتى تحلق حوله بعض الشباب، فذهبت إلى هذه الحلقة فإذا بي أجد فيها عبد التواب طه رفيق المعسكر في أسوان! فسَلَّم عليّ بحرارة فسألته: هل تعرف هذا الشيخ؟

فقال يتيه عليّ: أعرفه وأعرف كذا وكذا، ثم أخذني من يدي فسلَّمنا عليه وعرفني به، ثم قال: لا بد أن تأتي هنا عصر اليوم، سنكون معا في بيت أخ طبيب يجتمعون في بيته، وسأذهب معهم، وقد كان، وفي هذا المنزل وهذا اللقاء بايعتُ الشيخ عبد الله السماوي!

كان الشيخ في ذلك الوقت شابا نشطا لا يزيد عمره عن الثلاثينات أو حتى في أواخر العشرينات، كان قويا شديدا صلبا، وكان شاعرا متميزا لا يشق له غبار، وكان خطيبا فصيحا مفوها آسرًا، أقوى ما يميزه قوة شخصيته التي تأسر سامعه، فلو أني أردت أن أقربه لك لقلت: كان الشيخ السماوي لنا مثلما كان الشيخ حازم أبو إسماعيل لكم!

كنا منبهرين به، ملتفين حوله، وقد كان دائب الحركة، واسع النشاط، دائم التجوال على كل جامعات مصر تقريبا، يدعو فيها إلى الله، فما هو إلا أن يرتب له بعض الطلاب حتى يحضر ويحاضر، سواء أكانت الدعوة من اتحاد الطلاب أو الطلاب النشطين، وكانت

الجامعة يومذاك في حرية تسمح للطلاب باستقدام واستضافة المشايخ، فما هو إلا أن تُكَوِّن أسرة؛ وباسمها تستقدم الشيخ، ولم تكن ثمة قيود كما صار فيما بعد.

فمن هاهنا صرتُ واحدا من مجموعة الشيخ عبد الله السماوي، بايعته ثم كنت عضوا فاعلا في هذه المجموعة، ولم يحتج الأمر مني إلا هذه الخطبة الأولى وهذا الزمن بين صلاة الجمعة وصلاة العصر حتى أنتقل من كوني أجهله تماما إلى بذل البيعة له!!

لقد كانت خطبة جليلة مؤثرة، كان يخطب في مسألة الدولة والمقاومة، لماذا الخوف؟ لماذا يقول الناس: نخاف لنأكل العيش؟ ما أشبه هذا بحال البهائم؛ إلا أن البهائم تأكل البرسيم، بل إن هذه المرتبة أحط من مرتبة البهيمة؛ إذ ليس مطلوبا من البهيمة فوق أنها مسخرة للخدمة، أما الإنسان فمؤهل لما هو فوق ذلك ومُكَلَّف بما هو فوق ذلك، وتلا قوله تعالى {إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل}، وكيف نخشى الناس ونخشى أعداء الله؛ والله أحق أن نخشاه، وهو الذي يجب أن نتوكل عليه ونعتصم به.. وهكذا!!

لمستْ هذه الخطبة قلبي، قد كانت مثل هذه المعاني قديمة الرقاد في قلبي -كما حكيت سابقا عن مرحلة الثانوية- وأحببت هذا الأسلوب، شعرت به يعبر عما في نفسي، إنني أريد قول هذه المعاني لكن لا أستطيع التعبير عنها في ألفاظ، نعم، لماذا لا يثور الناس؟ لماذا لا يُغَيِّرون ما هم فيه؟ لم الناس هكذا وهكذا... إلخ!

ويمكن أن نمدّ الخط على استقامته، إذا نشدنا التغيير فلا بد من جماعة بل وجماعة قوية، ولكي تكون الجماعة قوية فلا بد لها من بيعة، بيعة كالتي أخذها النبي صلى الله عليه وسلم من الأصحاب ومن الأنصار، ولما كان ميثاق البيعة قويا كان هذا سر قوة هذه الجماعة وسر بسالتها ومقاومتها الظلم والاستعباد، وهكذا دخلنا في المجموعة!

وتركت الشيخ السماوي!

سرعان ما اختلف الأمر..

كانت تمضي بنا الأيام ويزداد العمر وينظر المرء خلفه فيجد أنه لم يصنع شيئا!!

أول سؤال يخطر ببال القارئ: ما هي النشاطات التي كنتم تمارسونها في جماعة الشيخ السماوي؟ وأجيب: هذه هي المشكلة، أنه لم تكن ثمة نشاطات نقوم بها، ما هو إلا أن يأت الشيخ عبد الله السماوي فنجتمع حوله، فيخطب فينا ويعظنا ويحدثنا ويبث فينا ما يثير فورة حماستنا وعزمنا وإصرارنا، ثم تنتهي الجلسة فينتهي معها كل شيء!

كان أمير مجموعتنا في الجامعة هو صديقنا عبد التواب طه أحمد الذي عرفني بالشيخ أول مرة، ومع هذا لم نفعل شيئا في الجامعة، بل لم نتخذ لأنفسنا اسما، إنما نعرف بعضنا كمجموعة الشيخ عبد الله السماوي. وهكذا كان يفتر حماسي بمرور الوقت بسبب هذه «البطالة»! لم يكن الشيخ رحمه الله يُوَظِّف أتباعه توظيفا حسنا، كان تحت يده عشرات الشباب في الجامعة، ولكن إجابته الوحيدة تقريبا على حماسة الشباب التي تسأل عن العمل أن يقول: أول الواجبات نتعلم العقيدة الصحيحة!

وهو، والحق يقال، ممتاز في باب العقيدة، وأنا أعتبر نفسي تلميذه في هذا الباب، وقد قرأنا في مجموعته «العقيدة الطحاوية» وشُرِحَتْ لنا، وقرأنا مجموعة التوحيد وشُرِحت لنا، وكتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب وشرح لنا، وهكذا.. وبهذه الكتب والشروح انتقلتُ نقلة حقيقية وقوية من الصوفية إلى الالتزام بأهل السنة والجماعة وعقيدتهم: العقيدة الطحاوية.

كان رحمه الله مثالا للسلفي الحق، كان سلفيا مجاهدا أو مقاوما، ليس مثل أولئك الذين شوهوا صورة السلفيين، أعني: حزب النور وفريق الإسكندرية هذه الأيام ، وبالمناسبة: فلم تكن بداية سلفية الإسكندرية على هذا النحو الذي وصلوا إليه الآن، بل كانت مجموعة محمد إسماعيل المقدم مجموعة ممتازة، ولم يكن ثمة اختلاف كبير بيننا (نحن الجماعة الإسلامية - فيما بعد) إلا ما يرونه أننا استعجلنا في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن؛ لهذا حديث مؤجل إن شاء الله.

كانت مجموعة الشيخ عبد الله السماوي سابقة في الجامعة على أي مجموعة دينية، لا جماعة إسلامية ولا سلفيين ولا شيء، وكان أظهر وجود لها عندنا في جامعة أسيوط، ومع أن الشيخ السماوي مقيم في القاهرة إلا أنه كان يكثر من زيارة أسيوط.

وكان ثمة شيخ آخر شهير جدا لكن غاب عني اسمه الآن ، وكان من جمعية أنصار السنة المعترف بها رسميا، لكنه كان رئيس جماعة أخرى «جماعة الحق»، وكان أيضا من هذا التيار السلفي المقاوم، وكان يحث على العمل، لكن أهم ما أخذناه من العمل منه هو إعفاء اللحية، وما أزال أتذكر مقولته في الحث على ذلك، فهو إن وجد شابا حليقا سأله نصف مازح «أيهما خير؟ الديك أم البِنِّيَّة؟!» (وهي الدجاجة)، فتصل الرسالة، فمن هذا الشيخ تعلمنا الالتزام بالسنة والهدي الظاهر.

جذور الجماعة الإسلامية

البذور الأولى

في تلك الأثناء بدأ يتزايد ظهور المتدينين في الجامعة من غير المنضوين تحت «الجماعة الدينية» الرسمية في الجامعة والتابعة في حقيقتها لأمن الدولة، كان أولئك المتدينون من أمثالنا وأمثال غيرنا من المتأثرين ببعض الشيوخ. وأحببنا أن يكون لنا نشاط إسلامي حقيقي، ينفذه متدينون مخلصون أمثالنا غير تابعين لأمن الدولة! فمن هنا بدأ يكون لنا شيء من النشاط المستقل داخل الجامعة، فصرنا نفعل ما كنا ننفذه ضمن «الجماعة الدينية» التابعة للجامعة ولكن باستقلال عنهم، من نحن؟.. إلى هذه اللحظة لم نتخذ اسما ولا عنوانا!

نقيم معرضا للكتاب الإسلامي، نكتب مجلة الحائط، نبيع الزي الإسلامي للفتيات، أحيانا نجمع من بعضنا مبالغ زهيدة بسيطة ثم نشتري هذا الزي ونوزعه مجانا، إمكانيات محدودة، إلا أن فارقا واضحا بين هذا الزمن وبين هذا الواقع الآن؛ في ذلك الوقت كنت طالبا ملتحيا فما إن أذهب إلى صاحب بقالة أقول له: نحن نجمع تبرعات للزي الإسلامي للبنات أو لشراء مذكرات الجامعة للطلاب الفقراء أو لأي غرض آخر، إلا ويعطيني من المال دون تردد، كان مظهر المتدين في ذلك الوقت يساوي الثقة. قد

يعطيني التاجر خمسين قرشا، وكان هذا في ذلك الوقت مبلغا له قيمته. كذلك فقد كان في الناس خير وبذل وعطاء يبدو أنه غاض الآن!

كانت اللحية والقميص (الجلابية باللهجة المصرية) تُسَرِّع من تعارف المتدينين الجدد إلى بعضهم، ولم يكن أعضاء «الجماعة الدينية» الرسمية التابعة للجامعة يهتمون باللحية ولا الهدي الظاهر، بينما تمسَّكنا نحن بهذا، وكنا ندخل إلى الجامعة على هذه الهيئة، بل كان هذا القميص (الجلابية) من أهم أسباب القبض عليّ فيما بعد، ومنعي من دخول الامتحانات أربع سنوات.

صلاح هاشم

بينما نحن كذلك إذ تناهى إلى مسامعنا أن شابا اسمه صلاح هاشم (الذي سيكون فيما بعد أحد أهم أعمدة الجماعة الإسلامية المصرية) يعتزم منع حفلة تقيمها الجامعة، وسرى الخبر في الجامعة وفيه فحوى تقول: فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلينصر أخاه في منع هذا المنكر!

وبهذا نستطيع القول؛ إن فاعلية النهي عن المنكر سبقت تَكوّن الجماعة، أي سبق العمل التخطيط!

كانت الحفلة بمباركة عميد الكلية ورعاية رئيس الجامعة، ستأتي مُغَنِّيتان: خضرة وفاطمة سرحان، لم تكونا مشهورتين مثل مغنيات التلفاز والإذاعة لكنهما كانتا مشهورتيْن شعبيا، من فئة المغنيات الشعبيات، وقد اتفق معهما اتحاد الطلاب لإقامة حفل في الجامعة، ووافق على هذا ودعمه العميد ورئيس الجامعة.

وكانت فكرة صلاح هاشم بسيطة، أن يستكثر من المتدينين في مكان الحفل، وأن يسبقوهم إليه، فيحضروا ويكاثروا حتى يكثروا ويغلب عددهم عدد الذين يريدون الحفلة فعلا، ثم يشرعون في قراءة القرآن جماعة، هذا يقرأ ثم هذا ثم هذا، وهو ما كان.. سبق الشباب المتدين إلى مكان الحفل، أخذوا في تلاوة القرآن، ولم ينتهوا!

جاء العميد، وجاء من بعده رئيس الجامعة، وجاء من قبلهم ومن بعدهم غيرهم يستحثوننا أن ننتهي ونخلي المكان، ونحن ماضون في التلاوة كأن شيئا لم يكن، ولم يكن بدٌّ من وقوع اشتباك فقد جاءوا يخرجوننا بالقوة، فاشتبكنا معهم، وحيث وقع اشتباك وعراك فقد فسد الحفل، المغنيتان خافتا، والناس الذين جاءوا للحفل انسحبوا بأنفسهم، وانتهى الأمر على هذا الحال. أفسدنا عليهم حفلتهم أو بالأحرى: أصلحنا الأمر وقوَّمنا اعوجاجه.

لم نكن ننوي الاشتباك إنما حسبنا أن بقاءنا سيحملهم على الملل والعودة عن قصدهم، إنما حيث هوجمنا فقد كنا مضطرين. وهم بهذا يتحملون مسؤولية إفساد أجواء حفلتهم!

أغلب الظن أن هذه الواقعة كانت في ربيع 1976م، في الفصل الدراسي الثاني من عام 1976/1975م. قبل سنة واحدة من أول فوز «للجماعة الإسلامية» بانتخابات اتحاد الطلاب.

لكن أهم ما أسفرت عنه هذه الحادثة هو الزعامة التي تشكلت حول صلاح هاشم في الجامعة، لقد صار بهذه المبادرة والشجاعة زعيما بحكم الأمر الواقع، زعيما على المتدينين، على هذه الحالة الشبابية الإسلامية التي تتشكل في الجامعة. فكنا من بعدها إذا أردنا أن نفعل شيئا ذهبنا إليه فعرضناه عليه، أو إذا أردنا مشاورة شاورناه، وهكذا..

كان الشيخ صلاح هاشم حينها في السنة الرابعة والأخيرة من كلية الهندسة، هو ابن محافظة سوهاج، كان طيبا للغاية، دمث الخلق جدا، كريما جدا، مثالا في الإيثار، ولقد شهدت منه في هذا قصة كلما تذكرتها وتخيلتها في ذهني سبق إليَّ البكاء:

في ذلك الوقت كنا بدأنا في إقامة المخيمات أو المعسكرات، في المساجد، وكنا نستعين على نفقاتها من تبرعات المحسنين كما ذكرت آنفا، ولهذا فقد كان معظم ما فيها من الطعام؛ الأمور البسيطة: الجبن والحلاوة الطحينية والعسل، فإذا اتفق وحضر أحدٌ من أهل الخير مخيما من هذا فربما تبرع من عنده ببعض الأرز واللحم، ودائما ما كان هذا الطعام يكفي بالكاد عدد الطلاب الحاضرين في مخيماتنا، إذ كان العدد يصل إلى ثلاثمائة طالب ولا يقل عن مائة وخمسين.

كان صلاح هاشم مسؤول المخيم، وتحته مجموعة نسميهم «أمراء الحلقات» وأولئك الذين يديرون المخيم فبعضهم يقوم على شأن الطبخ وإعداد الطعام، وبعضهم يقوم على شأن التعليم: تلاوة القرآن والتفسير واللغة العربية والفقه.. إلخ! وأولئك الذين يديرون المخيم يأكلون آخر الناس، بعدما ينتهي الطلاب من الطعام، يجمعون من بقايا الطعام طعاما لهم، لم تكن لدينا وقتها ثقافة التنظيم أو إبقاء بعض الطعام لمن يديرون المخيم، إنما كانوا هم ونصيبهم، فلئن بقي لهم طعام أكلوا وإن لم يبقَ لم يأكلوا.

أين صلاح هاشم هنا، مسؤول المخيم؟.. إنه آخر من يأكل، بعد أن ينتهي أمراء المخيم من أكلهم، هذا إن بقي له شيء يأكله. ولقد رأيته لا يقبل أن يأكل إلا آخر الناس ولو لم يبق له شيء إطلاقا. كان مأكله في مكان تنظيف الأطباق إن وجد شيئا!

لقد أكبرته جدا، وبمرور الوقت ترسخت بيني وبينه علاقة أخوة عميقة، كانت بذرة

لنشأة الجماعة الإسلامية المصرية.

ترسخت بيني وبين صلاح هاشم أخوة عميقة، كانت بذرة نشأة الجماعة الإسلامية المصرية، وبعد ذلك بقليل بدأ يظهر في المشهد الشيخ أسامة حافظ.

كان ظهوره أيضا في معسكر من تلك المعسكرات، كان يدير حلقة فيه وأعجبني حديثه مع الإخوة في هذه الحلقة، فذهبت أتعرف عليه، وكان طالبا في كلية الهندسة، وكان في ذات سني هذه المرة وليس أكبر مني كما كان صلاح هاشم، فكلانا مواليد 1954، ولئن كان من فارق في العمر فهو في نحو الثلاثة أشهر بيننا.

وجهان من أعلام السلفية

في تلك الفترة بدأ يحدث تراشق بين الشيخ مصطفى درويش والشيخ عبد الله السماوي، وقد ذكرت فيما سبق أن الشيخ مصطفى درويش كان أميرا لـ «جماعة الحق»، وقد كان قبل ذلك ينضوي تحت جميعة أنصار السنة المعترف بها رسميا من قبل الدولة، إلا أنها ضاقت بطاقته وطموحه وآفاقه فتركها وأسس جماعة الحق هذه، لتمثل همَّه كرجل من التيار السلفي المقاوِم العامِل، وقد ذكرتُ أن من أهم ما أخذناه عنه الالتزام بالهدي الظاهر كاللحية والثياب. وكان هو والشيخ السماوي صنويْن، مع أن الشيخ مصطفى أسنُّ منه بكثير، بل كان الشيب يخط خطوطا في لحية الشيخ مصطفى بينما لم يجد الشيب طريقه إلى لحية الشيخ عبد الله السماوي!

فيما بعد سارت الشهرة في ركاب الشيخ السماوي أكثر بكثير من سيرها في ركاب الشيخ مصطفى درويش، ولعل جيل الشباب الذين هم الآن في الثلاثينات يعرفون اسم السماوي لكن لا يعرفون اسم مصطفى درويش، بينما في ذلك الوقت كان كلاهما

علمٌ من أعلام العمل الدعوي، ولكل منهما في جيلنا بصمات لا تنسى.

كلاهما سلفيٌّ، وكلاهما من أهل العمل والالتزام والمقاومة لا الخمول والاستسلام للواقع أو للحاكم، وكلاهما صاحب تأثير ونفوذ واسع على أتباعه ويجيد تكوين وتجميع الشباب من حوله، ومع هذا فبدلا من أن يجد التعاون مدخلا ليجمع بينهما فقد سبقت إليهما المنافسة والمنازعة على النفوذ والمناطق. كانت سوهاج مركز الشيخ مصطفى درويش وهي بهذا الاعتبار محرَّمة على الشيخ السماوي، وهكذا.

وقع بينهما التراشق اللفظي، وشهدناه معشر الشباب، فساءنا كما يسوء شباب كل جيل أن يشهدوا خلافات مشايخهم، ولأن الشباب من طبيعته الحماس والحسم فقد سبق إلى الأذهان سؤال الشباب المعتاد: من منهما على صواب ومن منهما على خطأ؟ وقد يتطور السؤال إلى أن يقال: من منهما على حق ومن منهما على باطل وضلالة؟

فأسررت لصلاح هاشم بهذا فقال: إنني أعرفهما، ولعل الشيخ مصطفى درويش يكون أقرب إلى الحق من الشيخ السماوي، إنني أعرفه من سوهاج، لكن على كل حال لن ندخل بين الرجلين ولن نخوض في خلافاتهما.

كان الشيخ صلاح هاشم شخصية مسالمة توافقية مع الجميع، ولم أكن كذلك، إنما كنت أتوق إلى اتخاذ موقف من أحد الرجلين، والانحياز إلى الآخر، فسؤال من منهما على صواب أو من منهما على الحق لم يكن سؤالا نظريا أطرحه لممارسة الثرثرة الفكرية، بل كان سؤال عمل وحركة يستتبعه انحياز وتعسكر وتخندق وراء أقربهما للحق.

كان صلاح هاشم يُجِلُّ الشيخ مصطفى درويش لمعرفته به، فهما من سوهاج،

ولسبق سنه وقدمه في خدمة الإسلام، وكان يرى أن الخلاف لا يأتي إلا بِشَرٍّ، وأنه يسعنا أن نعمل في الدعوة بعيدا عن الخلافات بين الرجلين الكبيرين.

وخلاصة القول؛ إنه إلى نهاية هذا العام الدراسي توثقت العلاقة بين ثلاثتنا: صلاح وأسامة وأنا، ثم حمل العام الدراسي الجديد ظرفا فارقا في تاريخ الحركة الإسلامية كلها.

ظهور الإخوان المسلمين

لقد خرجت قيادات الإخوان المسلمين من السجون الناصرية وشرعوا في التعرف على هذه الحالة الشبابية الإسلامية المتنامية في الجامعات، وساروا في هذا سيرا حثيثا يستطيع الذين كانوا في جامعة القاهرة أن يسردوا تفاصيله أحسن من غيرهم. وقد وصل إلينا هذا السير الحثيث في أسيوط متمثلا في معسكر دعت إليه قيادات الإخوان في مسجد عمر مكرم الشهير والقريب من محطة القطار. كان هذا بين سنتي 1976، 1977.

لم أحضر هذا المعسكر، ولا أتذكر الآن ما سبب تغيبي عنه، ربما كنت خارج أسيوط أو غير ذلك، إلا أني سأذكر أبرز ما حصل فيه، لأنه كان لحظة فارقة في العمل الدعوي الجامعي عندنا.

كانت أبرز قيادات الإخوان المسلمين في أسيوط حينئذ الدكتور محمد حبيب الأستاذ بكلية العلوم وهو الذي وصل إلى نائب مرشد الإخوان فيما بعد، ومحام اسمه محمد الغزالي، وآخر اسمه دسوقي شملول وكان معيدا في كلية الهندسة، وآخر اسمه عبود وكان في العقد السادس أو السابع من عمره ذا لحية بيضاء. أولئك هم وجوه الإخوان

في أسيوط، وهم الذين إليهم مرجع الشباب الذي انضم للإخوان في ذلك الوقت، وكانوا يُنَظِّمون الفعاليات التي يُحضِرون فيها الدعاة من أمثال الشيخ محمد الغزالي والحاجة زينب الغزالي رحمهم الله الجميع، وأولئك هم الذين نظَّموا هذا المعسكر وأنفقوا عليه.

فماذا فعلوا في هذا المعسكر؟

اقترحوا أن تختار كل مجموعة من الشباب المتدين في كل كلية «أميرا» لها، وذلك أن «الأمير» هو اللفظ الشرعي لمعنى الرئيس أو المسؤول، ونحن بطبيعة الحال منقادون للشرع. وهكذا اجتمع أبناء كل كلية واختاروا لهم أميرا، وبدأت تتهيكل الجامعة، فهذا أمير كلية الطب وهذا أمير كلية التجارة وهذا أمير كلية الهندسة... وهكذا.

وبعد هذا اقترح هؤلاء الإخوة قيادات الإخوان الأربعة أن يختاروا أميرا لكل الجامعة، يكون أميرا فوق أمراء الكليات.. وسأقف بالمشهد هنا لتوضيح بعض أمور، ثم أعود إليه.

كان شباب الجامعات ينظرون لقيادات الإخوان باعتبارهم قيادات دعوية قديمة لها احترامها وإجلالها لا سيما من له منهم محنة طويلة، فلذا يقبلون عليهم ويستمعون لهم كما يستمعون إلى أي شيخ كبير مرموق، فشباب هذه الفترة رغم حماستهم وطاقتهم الجبارة لم يكونوا يأنفون أن يتعلموا ويستمعوا بل ويخضعوا للكبار طالما رأوا في هذا مصلحة الدين والدعوة. ولهذا فلم يكن يستنكف الشباب المتدين من غير الإخوان المسلمين بل وبعض الذين في نفوسهم شيء من الإخوان، لم يكونوا يستنكفوا أن يحضروا فعاليات الإخوان الدعوية ولا أن يجيبوا دعواتهم إلى معسكر ينظمونه ولا أن يسمعوا لهم في أمر يقترحونه.

في سياق آخر كان صلاح هاشم قد تخرج في كلية الهندسة ولم يعد زعيمها، وإنما آلت الزعامة من بعده إلى أسامة حافظ، وكان هو بحكم الواقع أمير كلية الهندسة وإليه يرجع الشباب فيها وعن رأيه يصدرون، ولهذا لم يكن اختياره أميرا لهذه الكلية في ذلك المعسكر إلا أمرا سهلا وتحصيل حاصل.

لكن زعامة أسامة حافظ لم تتوقف عند حدود كلية الهندسة، لقد ورث زعامة صلاح هاشم التي تكونت في العام الماضي، وهي زعامة الشباب الملتزم في الجامعة كلها، فهو على الحقيقة زعيم الشباب الإسلامي بالجامعة.

وكان لأسامة حافظ صديقٌ معيدٌ بكلية الهندسة اسمه عبد المتعال، وكان صديقه هذا مسجونا مع الإخوان في الفترة الناصرية، إلا أنه كان يُكِنّ كراهية شديدة للإخوان، وكان كثير الحديث عن ضلالتهم وبدعهم، فألقى هذا بظلاله في نفس أسامة حافظ، لم يصل الحال إلى أن يكرههم كما كان حال صديقه، لكنه وصل إلى قناعة تقول: لا يجب أن نكون مع الإخوان ولا تابعين لهم. وإذا كانت هذه قناعة أسامة حافظ فهي قد تسربت إليَّ أيضا بالتبعية. ولا يزال هذا كله أمر في القلوب وحديث عابر على اللسان لا يترتب عليه عداوة ظاهرة أو عمل أو تنافس.

أعود إلى المعسكر

اختير أسامة حافظ أميرا لكلية الهندسة ببساطة، فلما جاء دور اختيار أمير الجامعة لم يكن ثمة أحد يستطيع أن ينافس أسامة في هذا الموقع، فإنه في واقع الأمر أمير الجامعة وزعيم شبابها الإسلامي. إلا أن إرادة قيادات الإخوان اتجهت إلى اختيار طالب صغير في السنة الأولى من كلية الطب اسمه أسامة سيد، بالكاد نبتت لحيته، ثم إنه حليقٌ، وهذا أمر حساس عند الشباب في ذلك الوقت.

وهكذا تضاربت إرادة شباب الجامعة وإرادة قيادات الإخوان، فجاء دور الدبلوماسية، فأخذ المهندس دسوقي شملول -أحد القيادات الأربعة- دفة الكلام وقال: يا شباب الشيخ أسامة حافظ أهل لهذا بلا شك ولكن المشكلة أنه الآن في السنة الأخيرة من كلية الهندسة، والمصلحة تقتضي أن يتولى الأمر شاب صغير فيمارس الأمر وتتراكم خبرته ويفيد ويستفيد، بينما الذي سيتخرج لن يستطيع مراكمة خبرة ولن يستفيد منه إخوانه وسيكون الأمير في العام القادم جديدا بلا خبرة ويتعلم من الصفر مرة أخرى. ومن هنا فمصلحة العمل الدعوي في أن يتولى الأمر من كان في السنة الأولى أو الثانية.

كان بهذا الكلام يريد أن يحث الشباب على اختيار أسامة سيد. ولهذا فكلما طُرِح اسم آخر غير اسم أسامة سيد لم يصلوا إلى نتيجة، ولم يكن أسامة أمير كلية الطب حينها بل كان أميرها في ذلك الوقت سيد العربي. وقد رفضوا أيضا أن يكون سيد أمير الجامعة لذات السبب: أنه سيتخرج العام المقبل.

ونجحت دبلوماسية القيادات الإخوانية آخر الأمر، وصار أسامة سيد، الطالب بالفرقة الأولى بكلية الطب أميرا للجامعة.

من هنا صار لقب أسامة سيد «أمير الجماعة الإسلامية في أسيوط».

«الجماعة الإسلامية»

ولهذا فإن أول من وضع اسم «الجماعة الإسلامية» في جامعة أسيوط كانوا هم الإخوان المسلمين، فمن قبل هذه اللحظة كان الشباب يعملون بغير اسم محدد، فربما سمينا أنفسنا أو سمانا أحدهم جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو كان

بعضنا من جماعة الشيخ السماوي، أو كان بعضنا الآخر من جماعة غيره، لكن بعد هذه اللحظة صار اسم الشباب الإسلامي «الجماعة الإسلامية».

هذه روايتي للتاريخ وان خالفها من خالفها!

وهنا لا بد أن أكرر وأؤكد: لقد كان أسامة حافظ قادرا على أن يفسد مشهد اختيار أمير الجامعة، وله من الدوافع ما هو جدير بالأخذ به، من أول قناعته بأن الإخوان ليسوا الجماعة التي يجب اتباعها بل لديهم من البدع والضلالات ما ينبغي لأجلها الانصراف عنهم، وانتهاء بقناعته بأن أسامة سيد لا يصلح لهذا الموقع. لكن الشباب كما ذكرتُ لم يكن ينطلق في العمل إلا متجردا لله ومُقَدِّمًا مصلحة الدين والدعوة على مصلحة نفسه، ومُوَقِّرًا للسابقين في العمل والدعوة وإن لم يكن تابعا لهم، وبعيدا عن المناكفات المبنية على حظوظ النفس. فإذا اقترح شيخُ فكرة ولم يكن لدينا فكرة تضادها فلا مشاحة ولا نزاع، وإذا كان لدى أحدهم رؤية وليس لدينا ما يقابلها فليكن ما يرى.

هكذا قيل: الجماعة الإسلامية! ما رأيكم في هذا الاسم؟

لا مانع؟ لا مانع. فانتهى الأمر وثبت الاسم.

وانتهى المعسكر على تسمية أمراء الكليات، وتسمية المجموع، وتسمية أمير الجماعة الإسلامية بجامعة أسيوط.

بعض إخواني في «الجماعة الإسلامية» يخالفني في هذه الرواية، وربما يأتي فيما بعد ما يجعلنا نسرد آراءهم. لكن النتيجة التي انبثق عنها هذا المعسكر رغم مرورها

بسهولة فإنها أسست فيما بعد لنزاع بدأ ولم ينته، وهو النزاع الذي انتهى بالانشقاق بين اسم وكيان ما صار يعرف بعدئذ بـ «الجماعة الإسلامية»، وبين اسم وكيان «الإخوان المسلمين»..

خضع أسامة حافظ وكبار زعماء الطلاب لاختيار الشاب الطالب بالصف الأول بكلية الطب أسامة سيد كأمير للجماعة الإسلامية بالجامعة، في واحدة من وقائع الزهد وتوقير الكبار وتقديم مصلحة الدعوة على مصلحة النفس، على النحو الذي أشرنا إليه سابقا.

لكن وَضْع أميرٍ على رأس الإخوة الكبار، وهو لا يتمتع بمواهب القيادة، لم يكن أمرا طبيعيا، لقد صار الأمر كأنه وُضِع أمير شكلي ليدير شيئا أكبر منه وأعظم، وجرى الأمر بهذه الصورة: الاسم والمنصب الرسمي لأسامة سيد، والزعامة الحقيقية لمن هم كأسامة حافظ وحمدي عبد الرحمن وغيرهم. له الصورة ولهم حمل العبء العملي في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهم يصدرون عن طبعهم وما استقر عليه الأمر في الفترة الماضية، فهم الذين يملكون مقاليد العمل على الحقيقة.

جذور الخلاف مع الإخوان المسلمين

عُرِفت جامعة أسيوط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان هذا أبرز سمت للعمل الدعوي الشبابي فيها، وقد حاول أسامة سيد تعطيل هذا الأمر مرارا ولكنه لم يفلح!

كان أسامة سيد واجهة قيادة الإخوان في الجامعة، وبدأ يظهر بالتدريج لماذا وضعوا أسامة سيد في هذا المنصب وأصروا عليه في ذلك المعسكر، كانت بداية المشكلات في اجتماع مجلس شورى الجامعة، حيث يجتمع أمراء الكليات ليتشاوروا ويقرروا ماذا

يفعلون، فإذا اتفقوا على شيء قال أسامة سيد: لا بد من الرجوع للإخوة الكبار، لا يمكن أن نتصرف في هذا بغير إذن الإخوة الكبار، وهكذا!.. يقصد بهم قيادة الإخوان في المحافظة.

وعندئذ يزمجر الإخوة أمراء الكليات، أولئك الذين أسسوا العمل ونظموه وتحملوه وكانوا يعملون باستقلال تام قبل أن يطرأ عليهم هذا الوضع الجديد، ويعترضون على هذا الأسلوب الذي يرهن العمل وقراره لآخرين، وأسامة من جهة يصرّ على ألا يُمْضِي أي أمر دون هذا الرجوع لقيادته في الإخوان واستئذانهم، ويتمسَّك بشرعية اختياره أميرا وله على الجميع حق السمع والطاعة!

تعددت الوقائع، يخرج أسامة من اجتماع مجلس شورى الجامعة إلى قيادة الإخوان بما استقر عليه أمرهم، فإما أقرُّوهم فعاد إليهم بإمضاء ما اتفقوا عليه، وإما اعترضوا فلم يُقِرُّوهم فسعى في نقض ما اتفقوا عليه بالأمس.

هنا بدأ ينمو عزمٌ لدى أسامة حافظ بأن يعزل أسامة سيدا! وحدَّث بقية الإخوة بما في نفسه، يقول: اخترنا أسامة سيد أميرا فإذا هو مخبر، يذهب إلى الإخوان فيخبرهم بكل شيء، وكلما اتفقنا على أمر رهنه لقرار ورغبة «الإخوة الكبار» عنده، والجامعة لها وضعها الذي لا يفهمه من كان خارجها، ولا يمكن أن يُقاد العمل في الجامعة من خارجها، وذهب هذا مثلا وشعارا «الجامعة تقاد من داخلها لا من خارجها».

وجد كلامه صدى في نفوس بقية الإخوة، وتشاوروا: كيف نعزله؟ قالوا: نجمع الناس كما جُمِعوا أول مرة، ونختار مرة أخرى، ولئن أعادوا اختياره فهم وما أرادوا، ولكن سيكون اختيارهم هذه المرة اختيارا حرًّا يجب علينا قبوله، وإن لم يختاروه فلن نسمح مرة أخرى لهذا الضغط أن يُمارس علينا، ولن يُفرض علينا من لا نقتنع به.

كان هذا في ذات السنة، لقد تولى أسامة سيد إمارة الجامعة في النصف الأول من العام الدراسي 1976 - 1977، بدأت ولايته في شهر نوفمبر أو ديسمبر 1976، وقضينا في هذه المشكلات الداخلية سحابة هذا العام حتى قررنا إقامة المعسكر العام لعزله في شهر مارس أو إبريل 1977، واخترنا أن يكون أيضا في مسجد عمر مكرم.

وليس يعني هذا أن العمل في الجامعة قد توقف، بل نحن في هذه السنة قد فزنا برئاسة اتحاد الطلاب في الجامعة. وكما هو معروف فقد كانت إمكانيات اتحاد الطلاب الرسمي العصب الأقوى في العمل الدعوي في الجامعات تلك الفترة.

حاول الإخوان ما استطاعوا إثناءنا عن فكرة الدعوة إلى معسكر، ثم حاولوا إثناءنا عن فكرة الانتخابات في المعسكر أيضا، طلبوا أن نعطيه فرصة أخرى، سنة أخرى، فترة جديدة، ونحن في إصرارنا نرفع شعار «الجامعة تقاد من داخلها لا من خارجها» و«لا فرصة إلا لمن يأتي به الطلاب»، يجادلوننا: ها قد صرنا في نهاية السنة الدراسية والوقت قد ضاق بل قد فات، ولن يتمكن الجديد من فعل شيء إذا انتُخِب، ونحن نرد: المهم عندنا أن يتحقق اختيار حقيقي للطلاب، ولئن اختاروه مرة أخرى فلا مشكلة عندنا..

وهكذا أخفقت محاولاتهم في إفساد الأمر، وذهبوا في محاولة حشد أتباعهم لإعادة انتخابه!

كان زعماء تنظيم المعسكر والدعوة إليه ثلاثة: أسامة حافظ وصلاح هاشم وأنا.. وكان حضور صلاح هاشم نوعا من الدعم المعنوي والروحي باعتباره مؤسس العمل الدعوي في الجامعة مع أنه كان قد تخرج في هذ الوقت.

بدأنا بانتخابات أمراء الكليات، وفيما أتذكر كانت النتائج هي هي، فيما عدا أمير المدينة الجامعية التي فاز بها هذه المرة ناجح إبراهيم وكان طالبا في كلية الطب، خلفا لأخ اسمه محمد عباس أو شيئا قريبا من هذا، وقد كان هذا الأخ من الجماعة الإسلامية أيضا لكنه لم يعد من المشهورين من رجالها فيما بعد.

اختير أسامة سيد أميرا لكلية الطب مرة أخرى، وجاء دور اللحظة المهمة، لاختيار أمير الجامعة.

ناجح إبراهيم أميرا للجماعة الإسلامية

كانت قيادات الإخوان حاضرة أيضا، نفس المجموعة: د. دسوقي شملول ود. محمد حبيب والمحامي محمد الغزالي، وفيما أظن الأستاذ عبود أيضا، وحاولوا قدر إمكانهم منع اختيار بديل لأسامة سيد، ولكن قيادات العمل الطلابي التي بدأته كانوا حاضرين أيضا: صلاح هاشم وأسامة حافظ وحمدي عبد الرحمن وعبد الله عبد السلام.

ولم أحضر أيضا هذا الاجتماع، ولا أتذكر السبب الآن، لكنني أدركته في اللحظات الأخيرة!

تداول الحاضرون فيمن يمكن أن يكون أميرا للجامعة، كان الإجماع منعقدا على رفض أسامة سيد، لكن ليس ثمة إجماع مقابل على شخص البديل، كان أسامة حافظ أول من طُرِح ليكون هو أمير الجامعة، ولكن أسامة حافظ رفض، رفض لئلا يقال: فعل هذا كله لأنه أرادها لنفسه. مثلما تنازل عنها أول مرة زهدا فيها وإيثار لما ظنه مصلحة العمل الدعوي.

وكان الشيخ أسامة حافظ هو الذي رشح ناجح إبراهيم ليكون أميرا للجامعة!

قال له الإخوان: لكن ناجح إبراهيم حليق، وأنت كنت تنتقد أسامة سيد لأنه حليق أيضا، فقال: يلتحي من الآن. فالتحى ناجح من هذه اللحظة وصار أميرا للجامعة.

انتهى الأمر، وصعد أسامة سيد المنبر ليقول كلمة، وهنا دخلت المسجد فأدركت هذه الكلمة!

الحق أنه قال كلمة مؤثرة حقا، بل لقد أبكاني فيها، وذكر أن ما حدث اليوم أمر غير شرعي، وأنه خروج على أمير شرعي، وأنه عمل لا يجوز، ولا أرضى عنه، وبصفتي أميرا للجماعة لا أقبل به، وذكر نحو هذا الكلام. كانت أشبه بخطبة التنحي عن العرش!! وانقضى الأمر. وأُعلن ناجح إبراهيم أميرا للجماعة الإسلامية بجامعة أسيوط.

وقبل أن أترك هذا المقام فإني أسأل الله أن يجمعنا بالدكتور أسامة سيد على خير وعلى ما يحب ويرضى، هو الآن طبيب كبير، ولكنه ليس حاضرا في الساحة الإسلامية، أو بالأحرى لا أدري الآن أين موقعه من العمل الإسلامي، وقد قابلته مرة أخرى في التسعينات، لقد كان أخا دمث الخلق جدا، وكان أصغر منا في السن ونحن أكبر منه، واختاره الإخوان -كما ذكرتُ من قبل- لكي يقضي أكبر فترة ممكنة في التواجد داخل الجامعة، بحيث يؤسس لحركة الإخوان داخل جامعة أسيوط، لكن هو كشاب كانت إمكانياته القيادية ضعيفة، لم يكن الأمر مجرد صغر في السنّ، فربما كان الأخ صغيرا ولكن ارتفعت به مواهبه، ولذلك لم يكن قادرا على احتواء الإخوة الذين كانوا أكبر منه وأقوى في مسألة القيادة.

كان يمكنه أن يعود للإخوان في كل القرارات لكن بشكل أذكى وأكثر احترافا وحصافة، دون أن يعطي شعورا لمجلس شورى الجماعة الإسلامية أنهم رهن قرار الإخوان، لقد كان يعلم أن هؤلاء الذين معه ليسوا أبناء جماعة الإخوان، ومن ثَمَّ فهم لا يقبلون بهذا

الارتهان والقيادة من الخارج، أحسب أني لو كنتُ مكانه لكنت ركزت جهدي واهتمامي في احتواء أولئك الذين ليسوا من الإخوان ليصيروا جزءا من الإخوان فيما بعد، فأشركهم معي في القرار والإدارة، بدلا من أن أقول: لا بد من الرجوع للإخوان، يمكنني أن أقول: ما رأيكم أن نستفيد من رأي هؤلاء الإخوة الكبار ومن خبرتهم؟ هلم بنا لمزيد من الفائدة نناقش هذا الأمر مع هؤلاء الإخوة الكبار، وهكذا.. أُنشئ نوعا من التعامل والاحتكاك بين هؤلاء الإخوة وبين الإخوان الكبار عسى أن يجعلهم ذلك من الإخوان تدريجيا! لكن الذي وقع أن الإخوة الكبار في الإخوان كانوا كأصحاب الفيتو والمرجعية المفروضة على مجلس شورى الجماعة الإسلامية بالجامعة، وبالتالي أنشأ هذا شعور النفور وقوَّى شعور الاستقلال لدى الشباب. لعله لو كان أسنَّ من ذلك وأخبر حركيا كان سيمكنه أن يدير الأمر بشكل أفضل.

جولات مع الإخوان المسلمين

يجب أن أقول للحق وللأمانة التاريخية، إن هؤلاء الشباب الذين أسسوا فيما بعد «الجماعة الإسلامية المصرية» لم يكونوا حتى ذلك الوقت معارضين ولا مستنكفين تماما أن ينضموا للإخوان المسلمين، فمنهم كثيرون كانوا يحملون هذا الاستعداد، وأنا من بين هؤلاء، لم يكن لدي أي مانع أن أنضوي تحت لواء الإخوان المسلمين، وكنت أرى أن خلافنا مع الإخوان إنما هو خلاف في قضايا بسيطة، وأنهم هم الجماعة الأكبر والأقدم والأعرق، وأنهم أكثر خبرة، وأنهم علماء ونحن شباب، ويحسن بنا أن نتبعهم. ومع هذا فقد كنت أسير مع المجموع، مجموع الشباب الذين أسسوا العمل الإسلامي في الجامعة، وأرى أن وجودي بينهم هو التزام أخلاقي لا يليق خرقه، لم أفعل مثلما فعل محيي الدين عيسى وأبو العلا ماضي إذ تركوا هذا المجموع المؤسس وانضموا للإخوان المسلمين، كان الانضمام للإخوان ميل عندي وهوى في نفسي.

أين أخطأ الإخوان

وبهذا يتبين لك أن هذا الطيف من الشباب لم يكن له موقف واحد من الإخوان، منهم من ترك هذا الجمع الشبابي وانضم للإخوان، ومنهم من كان هذا هواه في

نفسه لكنه لم يفعل، ومنهم من لم يكن لينضم للإخوان أبدا، ومن هذا القسم الأخير كان أسامة حافظ.

وقد ذكرت آنفا أن أسامة كان متأثرا بصديقه عبد المتعال، المعيد في كلية الهندسة، والذي كان يحمل موقفا غاية في السلبية تجاه الإخوان، إذ كان قد سُجِن معهم سابقا ولعله كان منهم فوقع بينهم في السجن ما أحدث بينهما نفورا كبيرا، وكان عبد المتعال هذا صديقا مقربا من أسامة حافظ، وعنه أخذ أسامة هذا الموقف من الإخوان، وكان عبد المتعال أسنَّ منا، وكان ذا شهرة على مستوى أسيوط.

وقد تضافر مع تأثير عبد المتعال تأثير آخر، وهو تأثير الشيخ السويفي، وكان شيخا كبيرا في السن وفي العلم معا، وكان مشهورا في وقته كذلك إذ هو أحد الدعاة المعروفين في أسيوط، وكان مسجونا قديما مع الإخوان واختلف معهم داخل السجن فخرج مغاضبا لهم ونافرا منهم وله عليهم مؤاخذات شرعية أيضا، وقصته في الخلاف مع الإخوان قصة مؤلمة ورواها لي بنفسه، نسأل الله أن يرحمنا وإياه ويغفر لنا وله ويجمعنا به في الجنة، لقد كان شديد النقد لكل التيارات الإسلامية الموجودة على الساحة ولا يكاد يسلم من لسانه أحد.

فمن هاهنا بُنِي موقف أسامة حافظ السلبي من الإخوان، ولأنه شخصية محورية وزعامة بين شباب الجامعة فقد استطاع أن يقلب موقف مجموع الشباب ضد الإخوان، وبغض النظر عن حادثة أسامة سيد في ذاتها، أو لنقل: إن حادثة أسامة سيد كانت هي التي فجرت المخزون الرابض في النفوس. كان الأمر أشبه بالحاجز النفسي لكنه ليس حاجزا من الهوى بل هو حاجز مبني أو ملتبس بالمؤاخذات الشرعية على الإخوان.

أتصور لو كانت جماعة الإخوان أكثر حصافة في هذه المرحلة لكانت قد تمكنت من

احتوائنا، الواقع أيضا أنهم أخفقوا في هذا، إن أحد أهم عناصر فشل جماعة الإخوان في هذه المرحلة أنهم فشلوا في احتواء شباب الجامعات المصرية، كان لديهم اتفاق مع النظام في هذه المرحلة أن يعملوا على تهدئة الطلاب وأن يكبحوا اندفاعتهم في وجه السادات والنظام، ولذلك فقد عملوا على هذا إلا أنهم نفذوه بطريقة استفزازية وغير احترافية، فبدلا من أن يستوعب الحالة صار يصادمها، كذلك فإن أمن الدولة في تلك المرحلة وحتى السياسيين بمن فيهم السادات لم يكونوا يدركون نفسية أبناء الحركة الإسلامية بصفة عامة، أو المخلصين منهم على وجه الخصوص، وفي تقديري أن المخلصين هم الذين يسهل احتواؤهم شرط ألا تصادمهم، فلو استمر السادات أكثر في مسرحية «العلم والإيمان» التي ابتدأها، واهتم بإتقان أدائها، لكان قد وجد له كثيرا من الشباب يحبونه ويدافعون عنه، ويقفون وراءه، ذلك أن الشباب يحتاج الإسلام.. يحتاج الدين، فهذا الشباب يرى زعيما يتكلم عن الدين والإسلام، لكن ينقصه أن يعمل كذا أو يعمل كذا.. لو أن السادات زاد في تمثيل هذا الدور لكان بإمكانه أن يحتوي هذه الطاقة الشبابية.

لكن اللغة الصدامية لا تصلح مع الشباب، فإذا أردت احتواء شاب لا يمكن أن يكون بداية هذا أن تصادمه، بل أن تعطيه قدره، وتثني عليه، فيكون هذا أول سبيل احتوائه.

أعود إلى خطبة تنحي أسامة سيد، تلك التي أدركتها من يوم المعسكر، وقد ذكرت أنها كانت عاطفية مؤثرة، وكان يلوم ويعاتب، ويقول بأن عزله هذا غير شرعي وغير صحيح، وأنه لم يزل الأمير الشرعي للجماعة الإسلامية في الجامعة، وهذا العزل وهذه الانتخابات كلها خطأ، وقال: وأنا أشكوكم إلى الله عز وجل، وسنلتقي بين يديه يوم القيامة... إلى آخر هذا الكلام.

ذهبت إليه زائرا في بيته، وسألته: ما الذي حصل يا شيخ أسامة؟

فشرع يقصّ عليّ قصة الخلاف من وجهة نظره، وأن المسألة قديمة في أصلها وليست حقيقتها ما يقال من أنه يعود إلى قيادة الإخوان، وأن شباب الجماعة الإسلامية لم يكونوا يرونه مؤهلا أصلا ليكون أميرهم منذ اليوم الأول، وأنه وباعتباره الأمير الذي أوكل إليه الأمر له الحق في تقدير ما الذي ينبغي أن يعود فيه للإخوان الكبار، وأن الخلاف معه على هذا ثم عزله بناء على ذلك أمر غير شرعي ولا يجوز.

قلت له: أنت تعرف يا أخ أسامة أن الإخوة الشباب الإسلامي، في الجامعة ليسوا كلهم من الإخوان المسلمين، ومن ثم كان المفترض أن تتعامل مع الناس وفق هذا الاعتبار، فتفرق بين الذين لا ينتمون للإخوان والذين ينتمون إليهم، فإذا أردت أن تدخلني إلى الإخوان فأعرض عليّ الأمر بشكل طبيعي عادي: تعرفني بالإخوان وتعرض عليّ أن أعمل معهم جنديا بينهم، فإما أن أقبل وإما أن أرفض، فإذا قبلنا صرنا جميعا في الإخوان وإلا بقينا خارج الجماعة وروعي هذا في التعامل، لا أن يكون السبيل هو إدخالنا بنوع من المراوغة والخديعة ضمن الإخوان، وجعلنا تابعين لهم سواء رضينا عن هذا أو لم نرض!

على كل حال تركت المقابلة عندي انطباعا حسنا عن شخصه، وأشفقت عليه مما رأيتُ من حزنه وغضبه، وقلت له: سواء أكنت أمير الجماعة أو لم تكن فنحن وإياك ننصر الحق والدين والإسلام، وجماعة الإخوان جماعة مقدرة لها اعتبارها، وأنت أخونا وإن كنا أكبر منك سنا، ولك أن تطلب منا ما تشاء ونحن تحت أمرك، وأنا شخصيًّا سأتواصل معك كثيرا، ولا تؤاخذ إخوانك وسامحهم، فإنهم إذا أخطؤوا فإنما ذلك عن اجتهاد، فلنتسامح ولنتغافر.. وظللت أقول كلاما من هذا القبيل.

كانت زيارتي هذه وكلامي له أمر صدق ليس من قبيل المجاملة أو المداهنة أو حتى المراوغة السياسية، أبدا، إنما يلازمني في هذا الجانب الأخلاقي والإنساني في مثل

هذه الأمور، فلقد بكيت لدى سماعي خطبته وتأثرت حقا، ثم كنت في زيارته هذه متأثرا به حقا وشفوقا عليه ومحبا له. هذا وأنا في نفس الوقت من أنصار الشيخ أسامة حافظ، ومن أشد المؤيدين لموقف عزل أسامة سيد، ومن المقتنعين تماما بأن العمل الإسلامي في الجامعة يجب أن يدار من داخلها لا من خارجها، وأن الجامعة يجب أن تكون مستقلة، وكان أول من رفع شعار «الجامعة تدار من داخلها» هو أسامة حافظ.

انشقاق العمل الإسلامي في الجامعة

نستطيع أن نؤرخ بهذا المعسكر الذي عزل فيه أسامة سيد لحالة الانشقاق والانفصال بين الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية، هنا ظهر بوضوح أن ثمة كيانيْن إسلامييْن من الشباب في الجامعة، والفارق بينهما واضح.

لم يُسَلِّم الإخوان بأمر عزل أسامة سيد وتنصيب ناجح إبراهيم أميرا، فاستمر أسامة سيد أميرا للشباب الإسلامي التابع للإخوان المسلمين بجامعة أسيوط، وصار ناجح إبراهيم أميرا لشباب الجماعة الإسلامية في أسيوط، غير أننا (شباب الجماعة الإسلامية) كنا الأكثر عددا وانتشارا وتأثيرا، فلم يكن الانشقاق معبرا عن نصفين أو فريقين متكافئين، بل لم تزل الجماعة الإسلامية هي صاحبة الصوت الإسلامي في الجامعة، والأمير هو ناجح إبراهيم قولا واحدا، لكن الذي صار معروفا أن شباب الجماعة الإسلامية شيء وشباب الإخوان شيء آخر، لا هؤلاء يتبعون لأولئك ولا أولئك يتبعون لهؤلاء.

مثلا، لم يكن للإخوان من أمراء الكليات إلا أسامة سيد أمير كلية الطب، وأحمد كمال أمير كلية العلوم والبقية معنا، اثنان فقط في كل جامعة أسيوط! ولذلك منعناهم من الحديث أو إصدار بيانات باسم الجماعة الإسلامية، إذ كانت هذه البيانات تعبر عنا نحن.

وهذا التمايز لم يكن أيضا يعبر عن كيانيْن لكل منهما فكر مخالف للآخر، فلم نكن نحن في الجماعة الإسلامية نحمل فكرا مناقضا للإخوان، إنما هو تمايز يعرف به أن «الجماعة الإسلامية» ليسوا من الإخوان المسلمين.

حاولت فيما بعد القيام بخطوة تُوفق وتقرب بين الجانبين، واقترح أسامة حافظ أن نقيم معسكرا عاما نجمع فيه كل إخوة الجامعة من كان منهم من الإخوان أو من كان منهم خارج الإخوان، كأنه معسكر تصالحي، ثم اختاروني لمسؤولية هذا المعسكر على اعتباري الشخصية التصالحية التي تربط بين الضفتين!

حضر الشباب من الكيانين: الإخوان والجماعة الإسلامية، وكان المعسكر سبع مجموعات، وحضره أسامة سيد ومعه أخ آخر اسمه أحمد زياد، وتولى كلا منهما مسؤولية مجموعة، وكان مجلس شورى المعسكر يتكون من أمراء المجموعات السبعة، وبهذا كان أسامة سيد وأحمد زياد ضمن هذا المجلس، وذكرت لهم في اجتماع مجلس الشورى أنه يجب أن نعمل في الجامعة كيد واحدة، وألا تفرق بيننا الانتماءات، هذا إخوان وهذا جماعة إسلامية، واخترنا موضوعات المعسكر للتأليف بين الكيانيْن: الإخوان والجماعة الإسلامية، كما اخترناها بحيث نبتعد تماما عن ذكر الخلاف أو ذكر الجماعتين لا بخير ولا بشر، فنقتصر على الموضوعات الشرعية والمعاني الروحية والأخلاقية، وخططنا ليأتي نصف الدعاة الذي سيحاضرون في المعسكر من الإخوان ونصفهم الآخر من خارج الإخوان.

لكن ومع ذلك فقد وقع المحظور..

أخفقت في إصلاح العلاقة مع الإخوان

وقع المحظور.. وقع على يد الشيخ محمد السويفي!

ذكرتُ فيما سلف قصة الشيخ السويفي وأنه كان يبغض الإخوان، ورتبنا له محاضرة عن قصة أبي حازم مع سليمان بن عبد الملك، وهي قصة مؤثرة في الزهد والأدب والرقائق، وكان الشيخ السويفي بديعا، إذا حكاها؛ يأسر بها القلوب، فجعلناها موضوع محاضرته لنستثمر موهبته فيها ونظلل المعسكر بجوٍّ من الإخاء والزهد الذي يقطع التنافس والشحناء بين الشباب المسلم.

وللقصة عدد من الروايات والمقاطع المتفرقة، ولكن جمعها بعض الشيوخ في كتب الزهد، وهي تروي أن سليمان بن عبد الملك -الخليفة الأموي- ذهب من دمشق إلى الحج، فمرَّ بالمدينة، فطلب أن يأتيه أحد من علمائها الذين أدركوا صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، لينصحه ويعظه، فدلُّوه على أبي حازم، فأرسل إليه فجاءه، فقال سليمان: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟

قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني؟

قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني.

قال: إن الناس لما كانوا على الصواب، كان الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفرّ بدينها من الأمراء، فلما رأى ذلك قومٌ من أذلة الناس تعلموا العلم وأتوا به إلى الأمراء فاستغنت به عن العلماء، واجتمع القوم على المعصية فسقطوا أو تعسوا أو تنسكوا، ولو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهم، لم تزل الأمراء تهابهم.

قال سليمان: يا أبا حازم، مالنا نكره الموت؟

قال: لأنكم خرَّبتم الآخرة وعمَّرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

قال: ليت شعري، كيف القدوم على الله غداً؟

قال: أما المحسن فكالغائب يقدُم على أهله، وأما المسيء فكالعبد الآبق يقدم على سيده ليعاقبه.

فبكى سليمان حتى علا نحيبه وقال: يا أبا حازم، ما لنا عند الله؟ قال: اعرضْ علمك على كتاب الله.

قال: وفي أي مكان أجده في كتاب الله؟

قال: قال تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}

قال سليمان: فأين رحمة الله؟

قال: فإن رحمة الله قريب من المحسنين.

قال سليمان: يا أبا حازم أي عباد الله أكرم؟

قال: أهل المروءة والنهى.

قال سليمان: فأي الأعمال أفضل؟

قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.

قال: فأي الصدقة أفضل؟

قال: للسائل البائس، وجهد المقل ليس فيها منٌّ ولا أذى.

قال: ما أعدل العدل؟



قال: قول الحق عند من تخافه أو ترجوه.

قال سليمان: هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟ قال أبو حازم: أعوذ بالله. قال سليمان: ولمَ؟ قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا يكون لي منه نصيرا.

قال: يا أبا حازم ارفع إليّ حاجتك.

قال: نعم، تدخلني الجنة، وتخرجني من النار.

قال: ليس ذاك إليّ، قال: فما لي حاجة سواها.

قال: يا أبا حازم فادع الله لي.

قال: نعم، اللهم إن كان سليمان من أوليائك فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن كان من أعدائك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى.

قال سليمان: فقط؟!

قال أبو حازم: قد أكثرت وأطنبت إن كنت أهله، وإن لم تكن أهله فما حاجتك أن ترمي عن قوس ليس لها وتر؟!

قال سليمان: يا أبا حازم ما تقول فيما نحن فيه؟

قال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟

قال: بل نصيحة تلقيها إلي.

قال: إن آباءك غصبوا الناس هذا الأمر، فأخذوه عنوة بالسيف من غير مشورة ولا اجتماع من الناس، وقد قتلوا فيه مقتلة عظيمة، وارتحلوا، فلو شعرت ما قالوا وقيل لهم!

فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت!

قال أبو حازم: كذبت، إن الله تعالى أخذ على العلماء الميثاق {لتبيننه للناس ولا تكتمونه} [آل عمران: 187].

قال سليمان: يا أبا حازم أوصني، قال: نعم سوف أوصيك وأوجز: نَزِّه الله تعالى وعَظِّمْه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك.

ثم قام، فلما ولى قال: يا أبا حازم هذه مائة دينار أنفقها، ولك عندي أمثالها كثير، فرمى بها أبو حازم وقال: والله ما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي، إني أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلا وردي عليك بذلا.

هذه قصة أبي حازم مع سليمان بن عبد الملك، قصة تنقلك من جو الدنيا إلى ظلال الآخرة، ومن شحناء التنافس إلى كرم البذل، ومن التباغض والتحاسد إلى المودة والإخاء. وفوق ما في هذه القصة من العبر فإن الشيخ السويفي قد اشتهر بها، يحكيها فيتوقف ويشرح، يخلب العقول ويسحر القلوب، قد كان موهوبا رحمه الله وغفر له.

ثم إن فيها ما يمس أمر الحكام والعدل في السياسة والمال، ويمس شأن العلماء مع الحكام، وفي اختيارنا لهذه القصة صرف له هو نفسه عن شأن الإخوان المسلمين أيضا، فقد كان كثير التعرض لهم والتعريض بهم.

كانت محاضرة الشيخ السويفي بعد صلاة المغرب، ولكنه وصل قبل المغرب بكثير، وقمتُ لاستقباله بصفتي أمير المعسكر، إلا أنه حين دخل نظر فوجد د. محمد حبيب (وهو من قيادات الإخوان كما هو معروف) يلقي درسا على شباب المعسكر، فنسي ما جاء لأجله وتلبسه شيطان الهجوم على الإخوان، وأخذ يتكلم بصوتٍ عالٍ يريد بذلك

إفساد المحاضرة، سأل بهذا الصوت: من هذا الذي يتكلم هناك؟

كان يراه ويعرفه، ولكنه يبدأ اشتباكا، فقلت له وأنا أخفض صوتي، وأحاول إلزامه خفض الصوت: هذا الدكتور محمد حبيب يا مولانا!

أكمل بصوته العالي وبنبرة ساخرة: آها، قد طالت لحيته، وصار سمينا مليحا!!

حاولتُ أن يصمت: يا مولانا لا داعي، لا شأن لك به..

إلا أنه واصل بصوته المرتفع: ولماذا تأتون بالإخوان ليحاضرونكم، وما الفارق بين الإخوان والتكفيريين، هؤلاء مثل هؤلاء، هؤلاء عندهم بيعة وهؤلاء عندهم بيعة...

قاطعته وأكاد أتميز من الغيظ وأحاول بخفض صوتي والجزّ على حروفي وزمّ شفتيّ أن ألزمه بخفض صوته، قلت: يا مولانا هذا المعسكر غرضه التصالح والتآلف والإخاء...

ولما كان هذا الكلام كله مسموعا للدكتور حبيب، وبدأت الغمغمات والهمهمات تسري والأمر يتوتر، أسرع د. حبيب في إنهاء محاضرته، وختمها سريعا، وقد كان ينبغي أن يختمها قبل المغرب بنصف ساعة لنتهيأ لأذكار المساء، ولعله شعر أن التشغيب عليه مقصود.

تداركنا الموقف سريعا، صار لدينا وقت فراغ قبل الأذكار، ثم جاءت محاضرة الشيخ السويفي بعد صلاة المغرب، وإذا به ينسى المحاضرة وموضوعها، ويسيطر عليه شأن الإخوان، فانقلبت محاضرته ذما وتجريحا في الإخوان، وكان فيها عنيفا جموحا!

هببت واقفا أريد الرد عليه، ولأعلن في الجميع أنه لا يعبر عن المعسكر، وكان

هذا في زماننا من أسوأ الأدب ومما لا يُتوقع مع المشايخ، فأمسك بي أسامة حافظ، وهدأني وقال لي همسا: لو قلتَ هذا فلن تكسب الإخوان ولكن ستخسر السويفي، اصمت الآن، واتركنا نعالج الموضوع بحكمة، سننتظر بعد محاضرته ثم سأتكلم بعده وأقول ما يعالج الموقف، وإذا لم يعجبك قولي قُمْ فردَّ عليّ أنا، فوافقته على هذا.

قام أسامة بعدما أنهى الشيخ محاضرته وقال: نشكر الأستاذ الشيخ السويفي، وذكر كلاما بهذا المعنى، ثم قال: والواقع أن عنوان المحاضرة الذي أعددناه للشيخ كان كذا وكذا، وكنا نودّ لو أتحفنا بالحديث في هذه القصة، ونحو هذا الكلام، ثم قال: كلام الشيخ السويفي لا يعبر عن المعسكر ولا عن القائمين عليه، ووجهة نظر المعسكر أن إخواننا في الإخوان هم أحبابنا وثلاثة أرباعهم هنا معنا، وقال كلاما بهذا المعنى.

قال أسامة نفس ما كنت أريد قوله إلا أنه كان أكثر هدوءا وإمساكا للعصا من المنتصف وأحب إرضاء جميع الأطراف، وعلى هذا انتهى المعسكر، ولكن أصبحتُ معروفا داخل الجماعة الإسلامية بأنني أقرب إلى جماعة الإخوان المسلمين.

وبهذه المحاضرة أخفق المعسكر في هدفه «التأليف والتقريب»، فلو أنني أعطيت نسبة لنجاحه في هذا الهدف فلن يكون إلا 15% أو 30% في أحسن الأحوال، ثم تزامن هذا مع إشاعة ضخمة أطلقها الإخوان تقول بأن ناجح إبراهيم يعمل مع أمن الدولة، وأن تنصيبه أميرا للجماعة الإسلامية في الجامعة إنما هو مؤامرة من أمن الدولة لضرب الإخوان في جامعة أسيوط، وصَوَّروا ما حدث من إعادة الانتخاب على هذا النحو، والحق أن الشيخ ناجح إبراهيم ساعتها كان رجلا تقيًّا ورعا زاهدا لا يمكن أن يكون عميلا لأمن الدولة، لكن تلك عادة للإخوان.

وبالمناسبة، حتى الآن ، لا أرى أن الدكتور ناجح إبراهيم عميلا لأمن الدولة أو ما شابه،

هو صاحب رأي وإن اختلفتُ معه، ولا أظن أنه يعمل لهم أو معهم، له وجهة نظر تختلف معها.

كان هذا المعسكر في شهر مايو 1978، في ذات العام الذي فاز فيه عادل أسعد الخياط برئاسة اتحاد الطلاب، وكان لهذا الاتحاد انطلاقة ضخمة في العمل الدعوي بالجامعة، أما بقية هذا الفصل الدراسي فلم يكن الوقت الضيق قبيل الامتحانات يسمح بنشاط طلابي، لكن الإجازة الصيفية كانت إجازة عامرة حافلة بالنشاط الدعوي.

وما أدراك ما اتحاد الطلاب

كان المشهد بيننا وبين الإخوان المسلمين هو المشهد الداخلي بين الإسلاميين في جامعة أسيوط، وهو مشهد حزين مؤسف، وأما المشهد الخارجي الدعوي فهو مشهد مشرق..

في ذلك العام (1978م) كان أول فوزنا بانتخابات اتحاد الطلاب.. وما أدراك ما اتحاد الطلاب؟!

في ذلك الوقت كان «اتحاد الطلاب» قوة حقيقية، وكانت اللائحة الجامعية تجعل منه كيانا قويا وتحت يده مقدرات وافرة، وأتذكر أن ميزانية اتحاد الطلاب في السنة التي تولى فيها عادل أسعد الخياط بلغت ثلاثين ألف جنيه، وهذا في زمن السبعينات مبلغ ضخم. وهذا المبلغ لا يمكن صرفه إلا بتوقيع رئيس اتحاد الطلاب نفسه، ولا يملك أي أستاذ جامعي أن يصرفه، وكان للاتحاد شرعية التعبير عن الطلاب، وفي إمكانه استعمال واستثمار مقدرات عديدة في الأنشطة الطلابية.. وباختصار، فإن التيار الذي سيفوز بانتخابات اتحاد الطلاب قادر على التأثير في مجتمع شباب الجامعة تأثيرا قويا..

يبدأ الطلاب الذين يريدون الترشح على قائمة اتحاد الطلاب بتجهيز أنفسهم منذ الشهر الأول في العام الدراسي، شهر أكتوبر، يجهزون بعض الأوراق على المستوى الرسمي لتقديمها إلى لجنة «البتّ» أو لجنة الفحص، وهي لجنة من موظفي الجامعة تفحص الأوراق من حيث تحقق بعض الشروط كألا يكون الطالب متهما بسلوك مشين أو نحو ذلك، ولكن اللجنة كانت من وسائل السلطة في استبعاد الطلاب الذين تراهم مزعجين، فربما تقدَّم لها ثلاثون أو أربعون، لكنها لا تجيز منهم إلا عشرة فقط.

لهذا كنا ندخل إلى اللجنة بكامل ثقلنا، بحيث أنهم مهما استبعدوا من الأسماء يبقى من المُجَازِين من هو منا، وفيما بعد صارت هذه اللجنة لا تجيز إلا من اطمأنت إليهم السلطة أو كانوا من عملاء الأمن بين الطلبة.

انبثقت الفكرة من الشيخ صلاح هاشم، سأل: لماذا نحن كجماعة إسلامية لا ندخل انتخابات اتحاد الطلاب؟ إننا نستطيع الفوز فيه؟

ووجد السؤال موقعه في نفوسنا: لماذا لا نفعل؟ هذا الاتحاد يستولي عليه طلاب من التيار اليساري، أو شلل منتفعة لا لزوم لها، فكرة ممتازة.. ولكن، هذا الأمر جديد علينا، فكيف نفعله ونفوز؟

أول ما فكرنا فيه: من هو المرشح المناسب؟

وضعت فكرة الفوز باتحاد الطلاب

اقترح صلاح هاشم أن يكون مرشحنا عادل أسعد خياط، شاب متدين، من أسرة كبيرة من مركز إخميم في محافظة سوهاج، ذو مال من أسرة تعمل بالتجارة، يستطيع أن

يقوم بعبء الترشح والحملة الانتخابية البسيطة، ونحن من ورائه عصبة ودعما وسندا. وكان صلاح هاشم بمثابة الأب الروحي أو الأخ الأكبر له، ولم يكن لعادل توجه إسلامي محدد، إنما هو شاب متدين عموما.

واستفدتُ من خبرتي القديمة في اتحاد الطلاب، فلقد كنت فيه ضمن الأنشطة التي صنعتها منفردا كما سبق الذكر، فألقيتُ فكرة مهمة كانت هي السرّ في الفوز..

في ذلك الوقت كانت جامعة أسيوط هي الجامعة الوحيدة في جنوب الصعيد، فكانت لها فروع في محافظات سوهاج وقنا وأسوان، في كل هذه المحافظات كان ثمة كليات تابعة لجامعة أسيوط، وهذه الكليات هي التي كان نواة جامعات المحافظات فيما بعد: جامعة سوهاج وجامعة جنوب الوادي وجامعة أسوان، فكانت الفكرة كالآتي، قلت لهم: إن الطالب المنافس (واسمه القرشي) يعتمد على الأصوات في جامعة أسيوط نفسها، فلنقم بالخطوة التي لن ينتبه إليها أحد، لنركز اهتمامنا على كليات الفروع في سوهاج وقنا وأسوان، هذه الكليات لا يُنْتَبَه لها عادة، فإذا كسبنا اتحاد الطلاب في هذه الكليات فقد قطعنا نصف الطريق أو أكثر منه نحو اتحاد طلاب الجامعة، ولن يبقى لنا إلا الفوز بكلية أو اثنتين من كليات جامعة أسيوط نفسها.. والواقع أنه يجب علينا أن نبدأ في هذا من الآن.

استحسن الإخوة هذه الفكرة، وتواصوا بالكتمان، وحذروا أن تتسرب، ثم بدؤوا الحركة في هذه الكليات الفرعية، وانتدبنا لهذه المهمة إخوة بأعيانهم، كانوا تابعين لنا في هذه الكليات، ليترشحوا ويفوزوا، وقد نجحت الخطة فعلا، وفاز كل مرشحينا في سوهاج وقنا وأسوان، ففي كل هذه الكليات حزنا منصب رئيس اتحاد طلاب الكلية ونائبه، وهكذا حسمنا الموقف:

كان مجلس الجامعة يتكون من عشرين مقعدا تعبر عن عشر كليات، لكل كلية مقعدان: رئيس اتحاد طلاب الكلية ونائبه، فكان فوزنا في سوهاج وقنا وأسوان قد ضمن لنا أربعة عشر مقعدا عن سبع كليات تتوزع في هذه المحافظات.

لم يحز منافسنا على صوت واحد من خارج أسيوط، وهكذا كان الفوز مضمونا، وصار عادل أسعد الخياط رئيس الاتحاد!

هذا الفوز كان فوزا إسلاميا عاما، لقد كنا في هذه المرحلة مع الإخوان في كيان واحد، لم يكن قد وقع الانشقاق بيننا ساعتها، وأتذكر المجهود العظيم الذي بذله شباب الإخوان أيضا، بل والمجهود الكبير الذي بذله الدكتور محمد حبيب، وكان في ذلك الوقت أستاذا بكلية العلوم، وكان شخصية بارزة وتربوية وتوجيهية مرموقة، ونحن كنا نحبه ونُكبره وننجذب إليه، وكانت جولاته وحديثه مع الطلبة من أكثر ما يؤثر فيهم ويجذبهم لانتخاب شباب الجماعة الإسلامية.

وقد حاول د. حبيب فيما بعد أن يجعل مؤسسة اتحاد الطلبة محايدة تخدم الاتجاهين (خصوصا بعد وقوع الانشقاق بين الإخوان والجماعة الإسلامية)، ولكن ما كان هذا ممكنا، لقد كان عادل أسعد الخياط رئيس الاتحاد من شباب الجماعة الإسلامية، فكان الاتحاد تابعا لنا. ويمكن القول بأن موقف عادل أسعد الخياط قد ساهم بشكل كبير في بروز الجماعة الإسلامية.

استمر عادل رئيسا لاتحاد طلاب الجامعة إلى أن صدر قرار السادات في السنة التي تليها (1978/ 1979) بحل اتحاد الطلاب، وهذا كان أول قرار يتخذه السادات في حل اتحادات الطلاب على مستوى مصر كلها، وهذا يدحض المقولة الرائجة الشائعة بأن السادات دعم التيار الإسلامي أو أفسح له لمواجهة التيار اليساري، هذه مقولة غير

صحيحة بالمرة.

لم يكن السادات داعما للتيار الإسلامي ولا حتى متسامحا معه، لقد أرسل السادات نائبه حسني مبارك إلى جامعة عين شمس ليجتمع باتحاد الطلاب في الجامعة لكي يفرض عليهم ألا يترشح طالب ملتحٍ على رأس الاتحاد! تأمل كيف يهتم رئيس الدولة بإرسال نائبه ليفرض على الطلاب ألا يأتي متدين لمنصب رئيس اتحاد الطلاب في جامعة!!

ومع ذلك كسر الطلاب هذه المعادلة، وحاز الشباب الإسلامي على اتحاد الطلاب، كان الجميع ساعتها يُسَمَّى «الجماعة الإسلامية» رغم أنهم لم يكونوا جماعة واحدة، بل كان الإخوان هم الأقوى في القاهرة وعين شمس، وكان السلفيون هم الأقوى في الإسكندرية، ونحن كاتجاه مستقل كنا الأقوى في أسيوط والصعيد. لكن المشهد الإسلامي العام أمام الدولة كان مشهدا واحدا تعبر عنه لافتة واحدة هي «الجماعة الإسلامية».

الواقع أن السادات دخل صراعا مبكرا مع الحركة الإسلامية، وهو من ابتدأ هذا الصراع، وكان جذريا فيه إلى حد مطاردة الإسلاميين في منصب رئيس اتحاد الطلاب!!!

إنجازاتنا في اتحاد الطلاب

كانت أهم إنجازاتنا في الاتحاد أن أحسنا استثمار الميزانية الكبيرة التي كانت تذهب إلى الجيوب ويوزعها النافذون فيما بينهم، أتذكر من بين هذه الأموال منحة تسمى «منحة البكالوريوس»، وقد كانت تعطى لأبناء الطبقات الغنية ينظمون بها رحلات إلى المصايف، وربما أنفق في الرحلة ألف جنيه أو عشرة آلاف جنيه (وهذا مبلغ كبير

في ذلك الزمن). فأما حين تولينا شأن الاتحاد فقد ألغي هذا كله، وشرعنا في تنظيم رحلات دينية بالحافلات.

لقد اكتسبنا ثقة الطلاب بحسن تصرفنا في هذه الأموال، لأول مرة يرى الطلاب «الكتاب المجاني»، لقد اقتطعنا من ميزانية الاتحاد ما نوزع به الكتب على الطلاب الفقراء، كذلك أحضرنا الأزياء الإسلامية لمن تريد أن ترتدي الزي الإسلامي، وزَّعنا إعانات مالية للطلاب الفقراء، دفعنا إيجارات للعاجزين عن دفع الإيجارات من الطلاب الذين قدموا من سوهاج وقنا وأسوان، أخرجنا الطلاب في رحلات مجانية من خلال الحافلات التي يملكها اتحاد الطلاب..

وكان من بين هذه الرحلات، رحلات لزيارة المقابر!!

وزيارة المقابر معنى ديني معروف، أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم لترقيق القلوب، ولكنه كان رؤية جديدة لمسألة الرحلات.

ولقد تبنى اتحاد الطلاب مواقف سياسية مخالفة لرئيس الدولة، وبالذات في مسألة اتفاقية كامب ديفيد، وكانت هذه المرة الأولى، إذ يفترض أن هذا الاتحاد مؤسسة تابعة للدولة، لكن الاتحاد عبر عن الشباب والطلاب ولم يكن يعبر عن الدولة.

وعلى هذا الوضع انتهت هذه السنة، نجاح في المشهد الإسلامي العام، وانقسام في المشهد الإسلامي الداخلي، عادل أسعد الخياط هو رئيس اتحاد طلاب الجامعة، وناجح إبراهيم هو أمير الجماعة الإسلامية بالجامعة.. ودخلنا إلى الصيف.

كان صيف العام 1978 عامرا بالنشاط الدعوي في كل محافظات مصر، حين أنهينا

الدراسة الجامعية هذه السنة بدأ نشاط الدعوة، كانت حافلات (أوتوبيسات) اتحاد الطلاب تحت تصرفنا، فكنا نذرع بها مصر ذهابا وإيابا في نشاطات ومعسكرات ومحاضرات مختلفة. وكان طلاب الكليات في سوهاج وقنا وأسوان ضمن المجال الطبيعي لعملنا كاتحاد لطلاب جامعة أسيوط، وخدمة هؤلاء الطلاب من صميم نشاطنا.

في ذلك الصيف نظَّمنا ثلاثة معسكرات للطلاب، واحد في سوهاج، وواحد في الجيزة، وواحد في أسوان، وفي كل معسكر يحضر الطلاب من هذه الكليات أو حتى من خارجها، من داخل الجماعة الإسلامية أو من غيرها، إن المسألة وإن كانت نشاطا طلابيا في صميمها إلا أن لها آثارا اجتماعية تتجاوز شريحة الطلاب كلها.

وبهذه المناسبة، أقول: إن طلاب الكليات كانوا يشاركون في انتخابات اتحاد الطلاب، لكن نظامنا الداخلي كجماعة إسلامية لم يكن بالانتخاب، وإنما هو أقرب إلى نظام «أهل الحل والعقد»، هذا مع انتشار الجماعة في الكليات وفروعها. في ذلك الوقت كانت الطيبة والصدق والصفاء هو الغالب على الشباب، يجتمع «الإخوة الكبار» -وهو مصطلح يعني السابقين من الطلاب في العمل الدعوي وتأسيسه والقدامى الذين عملوا فيه- فيختارون من بينهم من يرونه الأصلح للإمارة في الجامعة ثم الأصلح لإمارة بقية الكليات، وقد كانت العادة أن هذا الذي يُختار لهذا الموقع يدفعها عن نفسه ويرفضها بصدق وينكر ذاته على الحقيقة، ويجتهد ليصرفها إلى غيره ثم يجتهد إخوانه ليحملوه عليها، كان التدين الحقيقي موجودا في ذلك الوقت، لم يكن ثمة تنافس أو تنازع أو تسابق على المسؤوليات كالذي نراه الآن. وكنا في هذا الوقت نُوَلِّي من نحسبه على خير، ومن نتوسم فيه الفهم، فهم الدين، وقد كان فهم الدين رقراقا راقيا صافيا، لم يكن الأمر مثل ما هو الآن!

لم نفكر ماذا بعد!

نعود لشأن الرحلات..

كان أول ما تتميز به رحلاتنا أن كانت غير مختلطة، رحلات للشباب ورحلات للفتيات، وكان اهتمامها التثقيفي الديني هو الطاغي عليها، نطلب مشاهير المشايخ والدعاة والعلماء لإلقاء المحاضرات، وننظم توزيعهم بين المعسكرات. لم يكن ثمة نشاط رياضي أو إعداد بدني بخلاف الطوابير الرياضية العادية، لقد نسيت بالفعل الحلم القديم: حلم الانقلاب العسكري، جرت في النهر مياه كثيرة، واندمجت في الجماعات الدعوية تماما: مجموعة الشيخ السماوي ثم الجماعة الإسلامية.. ثم عرفت فيما بعد أنه لم تكن ثمة رؤية موحدة أصلا.

لقد كنا نعمل بالدافع الإسلامي الدعوي العام والبسيط، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحرص على نشر الدين وعلى أن يشيع الالتزام به بين المسلمين، كانت مظاهر اللحية والحجاب والنقاب هي ذاتها مظاهر النجاح، وقد كانت تنتشر باضطراد.. سنكتشف فيما بعد، حين تتحول الجماعة الإسلامية إلى تنظيم مع محمد عبد السلام فرج أننا طوال عملنا الدعوي النشيط الحافل هذا لم نفكر ماذا نريد أن نفعل؟!

كان الكل يعمل حسب طريقته وأفكاره، في سحابة عامة غامضة من التصورات والرؤى، تشغلنا المهمات اليومية والأمور التشغيلية وترتيب شأن المعسكرات والندوات والمحاضرات والخطب ونحو ذلك عن أن نجعل لكل هذا هدفا نهائيا نصل إليه، لم نجلس مرة لنسأل أنفسنا: ماذا ينبغي أن نفعل بهؤلاء الشباب، ولا حتى بسؤال كيف ينبغي أن يفعل هذا الشباب حين يتدينون في واقعهم الذي يصادم هذا الدين؟! نحن نعرف وبشكل نظري أن الواقع يجب أن يتغير، ونقوم بالدعوة إلى الله، نأمر بالمعروف

وننهى عن المنكر، نقسم الحكام القائمين كلٌّ حسب وصفه، نرى أن هذا كله هو أول الطريق إلى إقامة دولة الإسلام.. لكن كيف؟!.. لا توجد خطوات عملية، لا يوجد تصور كيف سنصل إلى الدولة الإسلامية ولا كيف سنبلغ مرحلة الخلافة، ولا كيف سنزيل هذه الأنظمة الجاهلية الكفرية القائمة.. لكن هذا كله كان بمثابة الأحلام المحلقة التي تراودنا ونتشرب لذتها في صحونا ومنامنا، حلم دولة الإسلام القوية والخلافة الراشدة الموعودة.. هذا الحلم كان يزيدنا حماسة في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونرجو أن نكون ممن يفعل ذلك ولا يخشى في الله لومة لائم.

هل لم نكن نتناقش؟!

بلى، كنا نتناقش ونتحاور ونتبادل الآراء والتصورات، رفاعي -مثلا- يرى أن الأمر لا يتغير إلا بانقلاب عسكري في النهاية وينبغي أن ندعو ضباط الجيش وهكذا، غيره يتصور طريقة أخرى، لكن لا أحد يعمل على تحقيق تصوره، لا رفاعي يدعو ضباطا في الجيش أو يجمعهم، ولا الآخر يفعل أيضا!

وفيما بعد ومع تطور وتعدد النقاشات كانت السحابة الغامضة تسفر عن بعض الوضوح، لقد وصلنا في النهاية إلى تصور نظري، وهو أيضا غير مدعوم بأي حركة عملية، هذا التصور النظري يقول بأن الأمر في مصر يتغير عبر الثورة الشعبية المسنودة بقوة مسلحة.

بقدر ما كان نشاطي ينمو، وأعمالي الدعوية تتسع، بقدر ما كان ينمو معه الخوف والقلق في نفس أبي وأمي، كنتُ شخصا ذا قدر وهيبة واحترام في بيتنا، أبذل لأبي وأمي الاحترام اللائق بهما، لكنهما يبذلان لي احتراما مقابلا، كنتُ من يشير عليهما، وكانا يلجآن إلي: ماذا نفعل في كذا وكذا؟.. ولقد كان هذا نمطا عاما رأيته في جيلنا،

أقصد قيادات العمل الطلابي الإسلامي، رأيتهم يحملون مسؤولية بيوتهم، ولهم القدر الوافر من الاحترام والتقدير في نفوس آبائهم وأمهاتهم. وهذا الأمر تسمعه -لو سألتَ- من الشيخ أسامة حافظ والشيخ عاصم عبد الماجد والشيخ كرم زهدي.. لم يكن يقع بيننا وبين آبائنا صدام في البيوت، على العكس، لقد أسلموا لنا القياد، إسلاما تحوطه المحبة والتقدير.. ويحوطه أيضا الخوف والقلق.. الكثير من الخوف والقلق والحذر!

ثم بدأ العام الدراسي الجديد في خريف 1978. ولقد كان عاما عامرا أيضا!

لقد كانت فرصة اتحاد الطلاب عظيمة، أعطت التيار الإسلامي قفزة كبرى لم تكن متوقعة، في تلك الفترة كانت ميزانية الاتحاد الطلابي قوية، وكانت هذه الميزانية تُنفَق من قبل على الفساد والإفساد، وتغير الحال لما جاء التيار الإسلامي فأنفقها في مصالح الطلاب: مساعدات للفقراء، أزياء إسلامية للأخوات اللاتي يرتدين الحجاب، إعانات للطلاب في دفع إيجار مساكنهم أو في شراء الكتب لهم، وسائر ما يقع في هذه المنافع التي شعر بها الطلاب بالفائدة الكبرى العائدة عليهم بوجود الإسلاميين في اتحاد الطلاب، لأول مرة ربما يرى الطلاب أن أموالهم التي تأخذها منهم الدولة قد رُدَّت إليهم، وقد كان هذا نفسه من دواعي ودوافع تحول الكثير منهم إلى الالتزام دينيا.

وتحولت هذه القوة الطلابية إلى قوة سياسية حين تبنى اتحاد الطلاب معارضة سياسة السادات في الذهاب لمفاوضات كامب ديفيد وتوقيع معاهدة السلام، ومثَّلت الحركة الطلابية ضغطا قويا حتى ارتكب السادات جريمته الجديدة بحل اتحادات الطلاب على مستوى الجامعات المصرية!

احتدام الخلاف مع الإخوان

لكن قبل أن نتحدث عن حل الاتحادات الطلابية سيكون حسنا لو ألقينا نظرة على الشكل الداخلي لتنوعات التيار الإسلامي، والتي لم تكن ظاهرة ولا منظورة لمن كان خارج هذه البيئة الإسلامية. لقد كانت الصورة من الخارج يمثلها تيار إسلامي عريض منتشر في سائر الجامعات، لكن لم يكن هذا هو الواقع إذا نظرنا إلى الصورة من الداخل.

لقد أسلفت أن الصحوة الشبابية الإسلامية في الجامعات سبقت وجود جماعة الإخوان التي كانت في السجون الناصرية ولم تزل قياداتها مسجونة حتى إن البعض منهم لم يفرج عنه إلا عام 1974م، وحين خرجت هذه القيادات سعت في احتواء القيادات الشبابية التي كانت قد تزعمت حالة الصحوة الإسلامية في الجامعات، وقد نجحت بالفعل في اجتذاب قيادات جامعة القاهرة، بينما تفاوت نجاحها في بقية الجامعات! لكن كان لها وجودٌ وحضور قوي في سائر الجامعات!

أما بقية الحالة الشبابية التي لم تنجح جماعة الإخوان في احتوائهم فقد كان حضورهم ظاهرا في الجامعات لكن لا حضور لهم خارجها، لأنه لا امتداد لهم في الخارج، إذ لا جماعة غير الإخوان في هذا الوقت، على الأقل ليس ثمة جماعة كبرى أخرى غيرها.

وانتهت الحالة إلى أن تحتوي الإخوان الحالة الإسلامية في جامعة القاهرة بالأساس، ثم في جامعة الأزهر وجامعة عين شمس، بينما كنا نحن أصحاب الحضور الأقوى في جامعات الصعيد (المنيا وأسيوط)، وكلمة «نحن» هنا تعود على «الجماعة الإسلامية» التي احتفظت بهذا الاسم كما بدأت به، ثم صارت فيما بعد حالة تنظيمية يقودها الشيخ عمر عبد الرحمن والتي نفذت فيما بعد أحداث 1981 واغتيال السادات. وأما

جامعة الإسكندرية فقد غلب عليها الاتجاه السلفي الذي صار فيما بعد جماعة «الدعوة السلفية» ذات الرموز المعروفة: محمد إسماعيل المقدم وياسر برهامي وأبو إدريس وغيرهم.

وإذا قلنا بأن جماعة الإخوان أخفقت في احتواء الشباب الإسلامي في الصعيد وفي الإسكندرية فليس معنى هذا أنهم توقفوا عن المحاولة، ولا معناه أيضا أنه لم يكن لهم حضور في هذه الأنحاء، بل لقد سبق وذكرت أن ما حصل عندنا في أسيوط سبَّب انشقاقا وبقي شباب الإخوان خطا مستمرا تحت قيادة الأخ الدكتور أسامة سيد، كما بقي شباب الإخوان في جامعة الإسكندرية تحت قيادة خالد الزعفراني وإبراهيم الزعفراني.

وبالرغم من وحدة الصورة للتيار الإسلامي كما تبدو لمن يراها بالخارج، فإن الصورة من الداخل ذهبت في سياق التنافس والتنازع، لا التنسيق ولا الوحدة، وكان الخلاف بين هذه الأطياف الرئيسية الثلاثة خلافا شديدا، كان الإخوان يرون أنهم الجماعة الأكبر وأنهم لهذا يجب أن يكونوا أصحاب اليد العليا في سائر الجامعات، وأولئك الذين لم تسعهم عباءة الإخوان كانوا يقاومون هذا بشراسة، وكانوا شبابا لم ينضجوا بعد ولم يطرأ على بالهم اقتراح: تعالوا نجلس مع الإخوان المسلمين وننسق معهم.

وقد زاد في الخلاف بين الطرفين اختيارات الإخوان السياسية في تلك المرحلة، فلم يكن الإخوان قادرين على أن يدخلوا إلى احتواء الشباب من باب: تعالوا معنا، وستجدون عندنا ما ترجونه من دعوة وجهاد وحسبة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.. لا، لا يستطيعون احتواء الشباب من هذا المدخل الذي هو ساعتها يمثل أصلا أصيلا في اتجاههم وحركتهم.

لقد كان الشباب وقتها عالي السقف عظيم الطموح مستعدا للفداء والتضحية ولا تردد عنده لو قاده أحد حتى لمواجهة الدولة، كانوا يسيرون عمليا نحو الصدام مع النظام.. نظام السادات. وكان الإخوان يتحاشون هذا أشد المحاشاة ويتجنبونه غاية التجنب، ومن ثم كانوا يبذلون غاية جهدهم في كفكفة الشباب الإسلامي عن قضايا إسلامية كثيرة كانوا يرون أنهم يجب خوضها.

من ذلك مثلا: مواجهة الانحلال الأخلاقي! وهذه تفردنا بها -نحن الجماعة الإسلامية- داخل جامعة أسيوط، فلقد كنا حريصين على صبغ الجامعة بالهَدْيِ الظاهر، نريد للشباب أن يلتحي، وللفتيات أن تتحجَّب، نرفض حصول الاختلاط بين الشباب والفتيات، ولا نعني بالاختلاط مجرد الكلام الذي يقع بين طالب وزميلته أو مجرد ما قد يجمعهما من أمور الدراسة فقد كان موجودا ولم نكن نستنكره، بل أعني بالاختلاط ما يكون من الاختلاط الفاحش كالذي يحدث في الحفلات من الرقص، وقد كان هذا موجودا في الجامعات آنذاك، أو ما يحدث من المزاحمة بينهما عند الدخول إلى المحاضرات والخروج منها، وكان يقع في أثناء ذلك تحرش وإسفاف كبير. كان الإخوان يرون أن نغض الطرف عن هذه الأمور كي لا تكون إثارتها سببا في الاشتباك مع أمن الجامعة أو إدارتها، وأن نصبر ولا نتعجل إصلاح هذه الأمور.

وكان لنا على الإخوان مطعن آخر، لقد كنا نرى أن الإخوان حركة لا تهتم بالعقيدة، ولا تعتني بالأساس العقدي للمنتسبين إليها، ويوجد في الإخوان من هو صوفي، وكان رأينا أن النزعة الصوفية تحتاج إلى الكثير من التخفف ومن التخلص من البدع والأهواء التي شابتها، لتعود إلى نقاء أهل السنة والجماعة. بينما كان الإخوان ينظرون إليها نظرة أخرى، فإذا ناقشناهم قالوا: نحن مدرسة للتربية، يدخل إليها الجميع، فيدخل إلينا الصوفي فيعيش بيننا ثم بعد فترة يقلع عن هذه البدع التي تعترضون عليها.

وكنا نقول: أنتم لا تمارسون حتى التوجيه إلى نقد هذه البدع... وهكذا!

في الواقع لم يكن الخلاف بيننا وبين الإخوان حقيقيا، أقصد كحركة في الجامعة، كانت حقيقة الخلاف في طريقة الأداء والسلوك، لم يكن اختلافا جوهريا، لم يكن اختلافا عقديا، إلا أنه كان اختلافا مصبوغا بفارق الأجيال، الفارق الذي يجعل الاتصال عسيرا بين حماسة الشباب وطاقتهم، وبين تعقل الشيوخ وتريثهم!

لقد كان يأتي لزيارتنا إخوة كبار مشاهير، مثل الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله رحمة واسعة، أو الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، أو السيدة زينب الغزالي رحمها الله، فكانوا رغم مكانتهم وقدرهم لا يراعون سن الشباب في لهجة خطابهم، يقول لنا الأستاذ التلمساني: أنتم تستعجلون الجهاد وكذا وكذا، وفي الواقع لم نكن نستعجل الجهاد بل ولا كنا نفكر فيه ساعتها، ولا كانت فكرة الجهاد نفسها موجودة ومطروقة، وغاية ما نفكر فيه كانت هذه المظاهرات الصاخبة المعارضة للسادات في كامب ديفيد أو في استقباله لشاه إيران، يعني مسائل بسيطة لا تستوجب هذه الحملة الشديدة التي يتصدى لها الأستاذ التلمساني نفسه، يرحمه الله!

وعن نفسي، كنت أقول: يمكن للإخوان أن يستوعبونا، ويمكن أن نكون من رجالهم، فقط لو أنهم قدَّروا سن الشباب واجتهدوا في احتوائه، بدل أن ينظروا إلى تصرفاتهم بعين النقد وبدل أن يعالجوها بما يُنَفِّر منهم!

لهذا أقول، لقد كان الخلاف بيننا وبين الإخوان في الأساس خلافا في الأداء والسلوك، لا في الرؤية، بل من الإنصاف أن أقول: لم يكن لدينا في هذه المرحلة رؤية أصلا!

لم يكن لدينا رؤية لأننا بالأساس لم نلتقِ أولا على رؤية، كانت لا تزال فكرة الانقلاب

العسكري في ذهني، نعم، لكن كل ذهن كان يحمل فكرته الخاصة، وإذا كنا تعارفنا أجسادا وأرواحا فلم نتعارف بعدُ رؤىً وأفكارا، بل وقد كان فينا من لم تكن لديه فكرة مطلقا، إنما هو ينظر إلى الجماعة كمحضن أو كبيئة ينفق فيها طاقته وبذله لخدمة الدين. إنما كانت لقاءاتنا لقاءات الشباب المتدين الملتزم، وفيما بعد نشأت بينهم الألفة والمودة، ثم فيما بعد جاء دور التعرف على الأفكار وتمحيصها!

لهذا أقول، لو كان الإخوان المسلمون استهدفونا بشكل منظم، وخاطبوا كل واحد فينا بما يناسبه، لكان محتملا جدا أن يؤثروا علينا، ربما ليس الجميع، لكن الأغلب، ولو أنهم نجحوا لصاروا القوة الأولى في جامعة أسيوط لا القوة الثانية. ولكن يجب أن أثبت هنا للتاريخ أنهم كانوا القوة الثانية رغم كل شيء.

وحين أسترجع الأيام في ذهني، أقول وبأمانة، ربما يكون الخلاف أقل حتى من أن يكون خلافا في السلوك والأداء، لقد كنت أشهد شباب الإخوان وفيهم من يقيم الليل ويغض البصر، وسائر هذه الأمور التي هي سمت الشباب المسلم المتدين.

وبالعموم يمكن القول بأن فترة السبعينات بقدر ما شهدت ازدهار الصحوة الإسلامية، بقدر ما شهدت بذور الخلافات الأساسية بين التيارات الإسلامية المصرية، وهي الخلافات التي ستستمر نصف قرن آخر فيما بعدا!

ولادة «الجماعة الإسلامية»

إذا تبين لنا هذا الحال في خريطة التيار الإسلامي داخل جامعة أسيوط، فسيكون علينا أن نتابع التمايز والتكون التدريجي لأفكار الجماعة الإسلامية التي استقلت بهذا الاسم عن الإخوان المسلمين في جامعة أسيوط، وصارت تعبيرا عن تيار بدأ الدعوة ولم تستطع الجماعة احتواءه حتى وقع الانشقاق الذي ذكرنا قصته.

ولادة الأفكار: في مقابل الإخوان المسلمين

لقد ذكرت أننا لم نكن أصحاب رؤية كلية جامعة، إنما هي أفكار التدين البسيطة الأولى التي تجمع الشباب المسلم الغيور على دينه، ومن هنا كان تكوُّن أفكارنا في الجماعة الإسلامية وليد المناقشات الجانبية بيننا، لم نعقد -مثلا- مؤتمرا أو مخيما أو ندوة جامعة لنسأل أنفسنا من نحن؟ وماذا نريد؟ وكيف سنصل إليه؟.. تلك الأسئلة الكبيرة العميقة التي يبدأ الآن بها بعض الشباب جلساتهم البسيطة، فيختلفون عليها فينفضون قبل أن يعملوا شيئا!!.. كان الأمر لدينا بسيطا، نحن قوم عاملون عمليون، تحركنا تلك الأفكار البسيطة الأولى، ثم تأتي الحركة بالتكون التدريجي للأفكار. وهكذا، وفي أروقة الحوارات الجانبية بيني وبين عاصم أو بين كرم وبين حمدي أو بين آخرين

وُلِدت أفكار الجماعة الإسلامية.

ولأن الأفكار لا تولد في الفراغ، ولا في الذهن المحض، فلقد كان واقع الخلاف مع الإخوان في الجامعة صاحب نصيب كبير في هذا التكون الفكري، لقد بدأ التمايز من إخفاق الإخوان في احتوائنا ومن نجاحنا في الاستقلال عنهم، كان الشيخ صلاح هاشم ثم أسامة حافظ وأنا ثم ناجح إبراهيم رموز هذه الحركة الطلابية التي تمايزت عن الإخوان، وظل لها الشعبية الأكبر داخل الجامعة فيما كانت شعبية الإخوان على الأخص في كلية العلوم وجزء من كلية الطب.. وقد بدأ التمايز الفكري بيننا وبينهم من باب العمل، لقد كنا حريصين تماما على صبغ الجامعة بالصبغة الإسلامية.

مثلا: الإخوان لا يرون إعفاء اللحية واجبا، هم يرونها سنة مؤكدة ويحبذون إعفاءها، ويجيزون حلقها في ظل ظروف التضييق الأمني أو طلبا لمصلحة التأليف الدعوي أو حرصا على عدم حصول التمايز بينهم وبين عموم الناس فذلك عندهم أقرب لدعوتهم وتآلفهم واجتذابهم. بينما نحن في الجماعة الإسلامية نرى إعفاء اللحية واجبا، وأنه لا يجوز حلقها بحال، وأنها عنوان التدين والالتزام، وهي أول ما يُطلب في مهمة صبغ الجامعة بالصبغة الإسلامية.

ليس يعني هذا أن الإخوان جميعا يحلقونها، على العكس، لقد كان الأخ أحمد كمال أمير كلية العلوم، وهو من الإخوان، ذا لحية طويلة جدا، وكان ملتزما بالهدي النبوي الظاهر، وكان رجلا ممتازا نحسبه كذلك ولا أزكي على الله أحدا. بل الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة، وكان حينها رمزا ضخما، كان ساعتها ذا لحية كثة جدا، وكان يرتدي البنطال القصير، ولقد كنت منبهرا به حين تعرفت عليه ورأيت منه هذا الالتزام بالهدي الظاهر.

إذن، لم تكن المشكلة بيننا وبين الإخوان هنا مشكلة علمية أو فكرية، بل كانت مشكلة حركية لو صحّ التعبير، كانت المشكلة في حرصنا على التمايز والظهور الإسلامي العام، وفي حرصهم هم على الذوبان في الناس وتجنب التمايز عنهم حتى لو كان ثمن ذلك التخلي عن سيادة المظهر الإسلامي العام.

ومثل اللحية في هذا مثل الثوب القصير، لقد كان أكثر طلاب الجماعة الإسلامية يذهبون إلى الجامعة وهم يرتدون الجلباب القصير، ولربما ذهب بعضنا بالبذلة الإفرنجية أو البنطلون، لكن عمومنا وأكثرنا يحرصون على هذا الجلباب القصير كجزء من هدف صبغ الجامعة بالصبغة الإسلامية. ولقد كان بعض الإخوان يفعل هذا أيضا لكن ليس كما كنا نفعل كثرةً وحرصا.

هذه الأمور وإن كانت تبدو بسيطة للغاية وظاهرية جدا إلا أن مردودها الحركي ومغزاها البعيد يؤدي إلى تدعيم آراء فكرية في مسائل أشد عمقا وخطورة، نحن في الجماعة الإسلامية لم نجلس يوما لنناقش مسألة: هل الإخوان يوالون النظام المصري؟ ولم يكن هذا السؤال موضع اتفاق يوما فيما بيننا، إنما تختلف فيه الآراء. لكن، ومع هذا، فإن الخلاف حول اللحية والجلباب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو هذه الأمور يلقي بأثره وظله على هذه المسألة: مسألة الموالاة. لقد كان يسود رأي عام في أوساطنا أن الإخوان يُزَيِّنون نظام السادات، وأنهم يبذلون جهدهم في تثبيط الشباب عن مقاومة هذا النظام.

لست أناقش الآن صحة هذا التصور أو خطأه، إنما أصف ما كان موجودا حينئذ، وإلا فإن الجماعة فيما بعد تحملت العبء الأكبر في مواجهة كامب ديفيد وما تلاها، ولقد كانت مجلة الدعوة -الناطقة بلسان الإخوان- تشن حملة عنيفة جدا على كامب ديفيد، وهو ما أثار غضب السادات حتى صادرها. يجب أن تقال هذه الحقائق الآن. لكن

لماذا كنا غافلين وقتها عن هذا ونظن أنهم موالون للنظام؟ لعله كان للسنّ أثر في هذا!

إن الأمر الذي أحرص على تأكيده في تلك المرحلة أن «الجماعة الإسلامية» في تمايزها وانفصالها عن الإخوان المسلمين في ذلك الوقت لم تكن حركة ذات أصول فكرية أو اختيارات فقهية واضحة خالفت بها الإخوان، كان هذا التمايز والانفصال تمايزا حركيا عمليا نشأ من مشكلات إدارية أخفقوا فيها في استيعابنا، وحرصنا فيها على استقلالنا. لا لأنهم يقترفون ما نحن ضده، ولا العكس كذلك.

ولادة المواجهة: واجهنا الانحلال الأخلاقي

أتذكر الآن بالفخر والإنجاز أننا كنا أول جامعة في مصر يُصدر رئيسها قرارا يُلزم فيه بالفصل بين الطلاب والطالبات داخل قاعات التدريس، وتحديد أماكن الطلاب وأماكن الطالبات، هذا القرار كان نتيجة جهودنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي كان خلافا حركيا بيننا وبين الإخوان، إذ يرون الصبر عليه لتجنب ما قد يقع من الصدام مع الأمن أو إدارة الجامعة.

بدأت هذه القصة من كلية التجارة، والتي كان المدرج فيها يسع 750 طالبا، بينما كان العدد الحقيقي للدفعة ما بين ألفين إلى ألفين وخمسمائة طالب، فلك أن تتخيل كيف يتكدس المدرج بثلاثة أضعاف سعته الطبيعية من الطلاب، ولقد كانت نسبة الطالبات من بينهن تبلغ نصف هذا العدد تقريبا (بين 47% - 49%)، وأولئك جميعا في مرحلة الشباب، ويعلم الجميع ماذا يعني أن يتكدس الشباب والبنات في هذا السن في مكان واحد على هذا النحو، لقد كان التلاصق بين الشباب والبنات أمرًا لا مفرَّ منه لمن يكرهه، فكيف إذا كان هذا مرغوبا فيه، مطلوبا بعوامل السن والرغبة.

والأشد من تكدسهم في المدرج هو ما يحصل لهذا الجمع في لحظات الخروج والدخول إليه، فإذا كان التحرش الفج يحصل في المدرج فهو يحصل أضعافا عند التزاحم في الخروج والدخول، ولقد شاهدت بنفسي منه مشاهد سيئة منافية للأدب والأخلاق والعفة والدين، لقد وصل الحال إلى مقدمات الزنا على الحقيقة!!

عندئذ، جمعت الإخوة في الجماعة الإسلامية في كلية التجارة، وأخبرتهم أن هذا الأمر لا يمكن أن يستمر، ولا بد أن يتوقف بأي طريقة، وما من سبيل أمامنا إلا أن نقاومه مهما كلَّف الأمر، واستقر رأينا أول الأمر على أن نذهب لعميد الكلية، لا من باب أننا من الجماعة الإسلامية بل ولا من باب الدين، وإنما من باب أننا من الصعيد، وهذا أمر لا نقبله في بيئتنا ولا في عائلاتنا ولا في مجتمعنا، وهو ينافي ما عليه الصعيد من الأخلاق والحياء في نسائه والغيرة والنخوة في رجاله.

كان عميد الكلية هو د. مصطفى بهجت، وذهبت إليه مع أخ نسيت اسمه، وصادف ذلك اليوم أن كان أخونا الشيخ صلاح هاشم يزورنا في الكلية وكان ساعتها مجندا فكان حليق اللحية، فذهب ثلاثتنا إلى العميد، وكنتُ المتحدث منهم، فقلت له: يا سعادة العميد، نحن صعايدة كما تعرف، ولقد أرسلنا أهلونا إلى هنا كي نتعلم، ولكن الذي يحدث في الكلية هنا ينافي الأخلاق بل وينافي التعليم نفسه، فأنا شخصيا حين أرى مشاهد التحرش والاختلاط والتصاق الطلاب بالطالبات وما يقع بينهم يذهب تركيزي على الجملة فلا أحسن أن أتعلم، فلهذا نرجوك أن تتصرف فتجعل مقاعد خاصة للطلاب ومقاعد أخرى خاصة بالطالبات، وهذا نفسه سيوفر بعض الأماكن فإن الطلاب إذا تزاحم منهم 600 أو 700 طالب في مكان يتسع لثلاثمائة فقط لم يكن هناك شيء من الحرج والحساسية فيما بينهم، وكذلك الطالبات إذا تزاحمن معا لم يكن بينهن من الحساسية والحرج شيء، وهذا سيوفر مزيدا من الأماكن.

حاول العميد أخذ الأمر على سبيل المزاح والسخرية، وخلط كلامه ببعض التلميحات الماجنة، وجاءت ردوده على نحو: أنت يا بني ستخرج غدا إلى العمل في شركة أو في مصنع، ستختلط بزميلاتك هناك، فعوِّد نفسك منذ الآن على هذا الاختلاط، ثم ما أدراك أن الاختلاط شر؟ وماذا فيها لو حصل بينك وبين زميلتك تلامس ما، هكذا أو هكذا، وحتى لو أن الأمر تطور بينكما شيئا ما هكذا أو هكذا... إلى آخر هذا الكلام الذي ظاهره مزاح وباطنه خلاعة، ثم كانت خلاصة الكلام: هذا هو نظام الكلية، ونظام الكلية مستقر، ولا أريد فوضى أو بلبلة. وأخرجنا من عنده على هذا.

فكرنا مرة أخرى ثم ذهبنا إلى أستاذ لنا، كان اسمه د. محروس، كان متدينا وذا نزعة صوفية، وكان في الوقت نفسه مؤسسا أو مديرا لجميعة تهتم بالفتيات في أسيوط، يأتي لهن بمحاضرات دينية ونحو هذا. فذهبنا إليه شاكين وراجين: يا دكتور محروس، ذهبنا للدكتور مصطفى بهجت من أجل كذا فحصل كذا وكذا، فلو أنك ذهبت إليه فكلَّمْتَه لكان خيرا، فأنت أستاذ تخاطب أستاذا، ولعل صدره أن يفتح لك إذا أغلق لنا لكوننا من الطلاب. فوعدنا خيرا، وذهب إليه، وسمع منه ما يكره.

وهكذا فعلنا ما نستطيع من التغيير الناعم اللطيف، التغيير باللسان، فلم ينفع.. فلم يبق إلا التغيير باليد كما في الحديث الشريف!

في ذلك الوقت لم نكن فقهاء، ولم نكن قرأنا مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتوسع كما عرفناه فيما بعد، إنما البسيط الذي لدينا من العلم، حرَّك الكثير الذي فينا من الطاقة والغيرة والهمّ، وساعتها قررنا أن نغير هذا المنكر باليد.

قلت للإخوة: غدا إن شاء الله، نكتب لافتة: هذا المكان مخصص للطلاب، هذا المكان مخصص للطالبات. واستبقنا الطلاب في الصباح، وبدأنا بالدفعة الأولى التي هي

حديثة عهد بالجامعة فهي أقرب للاستجابة للتغيير، فجعلنا أبواب المدرج الخلفية للدخول، وأبوابه الأمامية للخروج، وجعلنا بابا في الأمام وبابا في الخلف للطلاب ومثلهما للطالبات. فيمتنع بهذا أن يحدث تكدس في الدخول والخروج، كما يمتنع أن يحدث اختلاط وتزاحم بين الطلاب والطالبات. وداخل المدرج وضعنا لافتات على قسم فجعلناه خالصا للطلاب وقسم آخر جعلناه خالصا للطالبات، ووضعنا عددا من الكراسي الإضافية في أماكن الفراغ الممكنة لتستوعب ما قد يزيد عن القاعدين في هذه الأقسام.

ولقد التزم الطلاب من تلقاء أنفسهم في أغلب الأحيان، بل إن معظمهم لم يشغل نفسه بسؤال من الذي وضع هذه اللافتة أو رتب هذا النظام، ولقد اقتصر دورنا على أن نقف أمام الأبواب، فإذا جاءت فتاة عند باب الشباب وجهناها لباب الفتيات، وإذا جاء شاب عند باب الفتيات وجهناه لباب الشباب، فكانوا يستجيبون.

كان الموضوع بسيطا، وسريعا أيضا، إلا أنه بقي يُعَكِّر صفوه أولئك الذين يحرصون على الالتصاق والجلوس إلى جوار بعضهم من الشباب والفتيات، أولئك الذين كان الاختلاط على هواهم، أو لعلهم لم يكونوا كذلك وإنما صاروا ضحاياه، فاستناموا لهذا الانحراف بعد استقامة!!.. أما هؤلاء فقد بدأنا معهم جولة أخرى، كنا نذهب إليهم فنوَجِّه الفتاة إلى أن تغادر مكان الشباب إلى مكان الفتيات، ونوجه الشاب إلى مغادرة مكان الفتيات، توجيها رفيقا لطيفا، بعضهم كان يستجيب، وبعضهم كان يعاند ويُصِرّ على موقفه، وكنا نصبر عليهم، كما كنا نراهن على الوقت، وأن يصير الأمر نظاما وعادة، وأن ينكشف أولئك المعاندون، إذ سيجد عشرون طالبا أنفسهم بين خمسمائة من الطالبات، وهي صورة مثيرة للخجل على كل حال.

وكان من فضل الله علينا أن عميد الكلية في هذا الوقت سافر خارج البلد، وظل غائبا

خمسة عشر يوما، فلم نجد معارضًا، وتمّ الأمر واستقر دون مشكلات، حتى الأساتذة لم يحفلوا بهذا التغير عموما، وبعضهم كان يثني عليه.

بعد هذه الأيام عاد عميد الكلية، وكانت لديه محاضرة في طلاب السنة الأولى، فتفاجأ من هذا النظام الجديد، ومن هذه الملصقات، فسأل بحنق: من وضع هذه اللافتات؟! من الذي جعلكم تنفصلون هكذا؟!.. لا.. لا، عودوا كما كنتم واختلطوا!

قال الطلاب: فعلها طلاب الجماعة الإسلامية، كما هو مكتوب على اللافتة، وهم يُشرفون على هذا النظام من أول اليوم إلى آخره!

قال: لا.. لا.. الجماعة الإسلامية لن تفرض إرادتها على جموع الطلاب، ارجعوا كما كنتم واختلطوا!

لكن الطلاب لم يرجعوا، كأنهم استهجنوا هذا التعبير، ولم أكن حاضرا في السنة الأولى هذا اليوم، إنما كنت مع أخ آخر ننفذ هذا النظام في طلاب السنة الثانية، وبينما هو في جداله مع الطلاب إذ أخبروه أننا نكرر نفس هذا النظام في السنة الثانية، فترك المحاضرة وحضر إلينا هائجا مائجا غاضبا! فتبعه طلاب السنة الأولى.

جاءت إلينا الجموع عند طلاب السنة الثانية، فبلغ العدد في مدرج السنة الثانية ما بين الثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف طالب، وأمر عامل المدرج فأحضر له الميكروفون، تكلم فيه غاضبا: من الذي فعل هذا؟ وظل هكذا خمس دقائق، وكنتُ مع أخي أبو بكر عثمان ومعنا صلاح هاشم أيضا -وكان يزورنا- ساكتين حتى رآني فتذكرني، فصاح بي: تعال هنا، تعالَ، فذهبت إلى صدر المدرج، وانتظرته لينهي كلامه، فإذا به يسأل ساخطا، وأجيبه هادئا:

- ما هذا الذي تفعلون؟

- وماذا نفعل؟

- هل تسخر مني.. هذا الذي تفعلونه؟!

- إنما ننظم أماكن الجلوس لا أكثر

- هذا من عمل الإدارة، وليس من عملكم

- هذا من عملنا نحن الطلبة، وهو يخصنا ولا يخص إدارة الكلية

- وكيف هذا؟!!

- نحن ننظم أماكن جلوسنا، ولم نتدخل في قضايا التدريس، نحن أدرى بأنفسنا، وماذا يريحنا، وكيف نجلس وكيف ندخل ونخرج.. وإذا جاءتك طالبة عندك في المكتب فأجلسها في المكان الذي تحب على الوجه الذي تريد، أما نحن فقد ارتضينا هذا النظام.. هل شكى لك أحد؟!

- أنا عارف لسانك طويل، وأنا سأفصلك من الكلية

وضعت يدي على كتفه قائلا بثبات:

- لو أني أخاف من الفصل ما كنتُ سأفعل!

زاده هذا هياجا وغضبا وصاح: أنزل يدك، أنزل يدك، سأؤدبك، بل سأفصلك، وسأفصلك اليوم.

هنا، ومع اشتداد اللهجة وتأزم الأجواء، هتف صلاح هاشم: الله أكبر!

وإذا بالجمع الهادر تسري فيه طبيعة الجماهير، فهتفوا: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.. إسلامية إسلامية.. وماجت الجموع المتكدسة داخل المدرج حتى فزع وأخذه

الروع وتحير، وتدافع الطلاب من حوله حتى كادت تميد به الأرض، بل كادت تزهق روحه من هذه الاندفاعة المفاجئة، ولكن تدخل بسرعة وبذكاء أخونا أبو بكر عثمان فصرخ في الطلاب: لا يقترب أحد من العميد، سيموت، سيموت، سيموت.. ومع صرخته الحازمة كأن الناس انتبهت فانفلقت عنه، فنادى أبو بكر بعض إخوانه بسرعة فكَوَّنوا ما يشبه السياج أو السوار حول العميد حتى أخرجوه من المدرج.

أمسكت بالميكروفون وخطبتُ في الطلاب: لقد حاولنا بقدر الإمكان أن ننظم أحوالنا بدون معاندة وبدون مشقة، والأمر سار فعلا على نحو سلس وبغير مشكلات، لكن يبدو أن العميد مُصِرٌّ على موقفه، ومُصَمِّمٌ على تفجير المشكلات، وبالتالي فقد قررنا أن ندخل في إضراب عن الدراسة إلى أن يتم إقرار هذا النظام الجديد بشكل رسمي!

وعزمتُ على إبلاغ بقية إخواني بهذا الأمر الذي طرأ عليّ منفردا، كي نغلق كلية التجارة وكلية الصيدلة وكلية الهندسة، وتلك هي الكليات الموجودة في الفرع القديم للجامعة، ثم سنطلب من إخواننا تعطيل الدراسة في الجزء الآخر من الجامعة الذي كان يُطلق عليه «الجامعة الجديدة»، وخرجنا من المدرج نذيع هذا الخبر بين الطلاب الذين خرجوا من المدرجات ومن السكاشن، وتجمعنا في فناء الكلية، وخطبتُ فيهم: نحن مستمرون في هذا الاعتصام حتى يتحقق مطلبنا، وتبادل الإخوة من الجماعة الإسلامية الخطب في الطلاب.

لم ينزعج إخوة الجماعة الإسلامية من انفرادي بهذا القرار، أو وصول الأمر إلى هذه النقطة الحرجة، بل كانوا متحمسين جدا، وبينما نحن كذلك إذ جاءنا رجل من قسم «رعاية الطلاب» اسمه المناديلي، يخبرني أن نائب رئيس الجامعة د. عبد الرازق حسن يطلبك إلى مكتبه، فوقفتُ بين الطلاب، وأعلنت فيهم أني ذاهب إلى نائب رئيس الجامعة، ولكننا على العهد: لن ينفض هذا الجمع حتى يُقَرَّ هذا النظام رسميا.

ذهبت ومعي أخي (الدكتور فيما بعد) السيد العربي إلى د. عبد الرازق حسن:

- ما هذا الذي تفعلون؟

- لا داعي للسؤال، فأنت تعرف.

- أعرف؟!.. أعرف ماذا؟

- ألم يخبرك د. مصطفى بهجت؟

- لا، لم يخبرني بشيء!

فوجئنا أنه لا علم عنده بالأمر، فقصصنا عليه القصص، فتفاجأ، ثم قال مندهشا: هذا الاعتصام من أجل تنظيم مكان للبنات ومكان للأولاد؟

- نعم، وهذا ما رضيه الطلاب أنفسهم، ولم يشتكِ أحدهم إلى د. مصطفى بهجت أو غيره، ولن نتراجع عن الاعتصام حتى يتم إقرار النظام رسميا!

- خلاص، تم إقراره رسميا.

- لا، الأمر ليس بالكلمات، ونحن لا نُخْدَع، والمسألة لا تقتصر على المدرجات بل على السكاشن أيضا.

- ماذا؟ سكاشن؟!.. لا، لا نستطيع، هذه لا يمكن تغييرها الآن.

- إذن، الطلاب لن تنصرف من مكانها ولن ينفض هذا الاعتصام حتى يتحقق هذا المطلب، إلا لو أردتم استعمال القوة وصرفهم بالعنف.

- يا بني، أنا والله موافق.. لكن لا يمكن أن نغير السكاشن الآن، هذه لها نظام لا بد من تعديله، أما مسألة المدرجات فالأمر سهل وبسيط، وما فعلتموه سيبقى كما هو.

- لا.. لا بد من السكاشن أيضا

- اعتبر هذا وعدا شخصيا مني، إذا رجعتم من إجازة منتصف السنة ستجدون نظام السكاشن قد جرى تعديله، لكن الآن هذا غير ممكن، لقد بقي شهر واحد على الإجازة، وهذا الوقت لا يتسع للتعديل.

- تمام، سأعتبر هذا وعدا شخصيا منك، ونحن موافقون.

- إذن، انزل واصرف الطلاب.

- لا، لا أستطيع أن أصرف الطلاب، ولكن سأكتب بيانا أقول فيه إن الدكتور عبد الرازق حسن نائب رئيس الجامعة قرر الموافقة على هذا الترتيب الجديد، وسَتُوَقِّع عليه قبل أن أعرضه على الطلاب.

- حسنا، موافق، اكتب البيان وسأوقع لك عليه.

وعلى هذا انتهى الحوار بيننا، وكتبت البيان ووقعه، ونفَّذ كلٌّ منا ما تعهد به. ولقد امتدَّ أثر هذا القرار تلقائيا إلى كل شيء في الجامعة، حتى الكافتيريا، نَظَّم أصحاب الكافتيريات في الجامعة أنفسهم بحيث يكون بعضها للطلاب وبعضها للطالبات بأثر من هذا الموقف.

وهكذا كان موقف واحد سببا عظيما في اصطباغ الجامعة بالصبغة الإسلامية، وشيوع الهدي الظاهر فيها، وترافق هذا مع كوننا نحن الجماعة الإسلامية في جامعة أسيوط الأعلى صوتا ضد نظام السادات والأكثر هجوما على سياساته، ونحن بهذا الثوب الإسلامي واللهجة الإسلامية والصبغة الإسلامية. كان صوتنا أشد قوة وأكثر إسلامية من الإخوان المسلمين، ومن السلفيين بطبيعة الحال، فالسلفيون يتجنبون الاشتباك السياسي، لقد كنا نحن الثوريين، كنا نمثل القوة التغييرية القادرة على الفعل، وكنا بفضل الله عز وجل وعونه إذا أردنا شيئا فعلناه، وقد استطعنا أكثر من

مرة أن نفرض ما نريد على كل قيادات المحافظة حتى المحافظ ومدير الأمن ورئيس الجامعة.

ولادة التنظيم: شباب مسلم في واقع بائس

لقد كان السر في هذا أننا كنا تيارا متماسكا قويا، صحيحٌ أننا مع الوقت بدأنا نتحول رويدا رويدا إلى نوع من التنظيم والمسؤولية وتوزيع الصلاحيات، إلا أن الغالب في هذه الفترة ولفترة بعدها كان هو الحب، كانت علاقة الحب هي السائدة وكانت القيادة تدير الجميع من منطلق الأخوة والتقدير والاحترام، إذا قال صلاح هاشم شيئا هرعنا لتنفيذه، أمير الكلية يرى شيئا فيسابق إخوانه لعمله، كان الأمر فطريا دون تأصيل فقهي أو عمق فكري، حتى إنك لو سألتَ أحدنا يومئذ: هل طاعة الأمير واجبة؟ لكانت الإجابة التلقائية: لا. ولكن الواقع العملي كان يشهد أن الإجابة: نعم. فلم تكن الطاعة التي يبذلها الإخوة لأميرهم ومسؤوليهم طاعة صادرة عن اختيار فقهي أو نظر علمي، بل هي صادرة عن شعور الحب الغالب، ومما يرونه في أميرهم من العمل والتضحية والبذل والسبق.

كان وجودي في الجماعة الإسلامية استمرارا لموقعي في المعسكر المعارض لنظام الحكم، لقد وجدتني منذ وعيت ضدّ هذا النظام، ذلك هو مشربي الذاتي وندائي الداخلي وفطرتي السليمة، ومنذ فكرتُ قديما في الالتحاق بكلية عسكرية لإدارة انقلاب عسكري، مرورا بجماعة الشيخ عبد الله السماوي، وصولا إلى الجماعة الإسلامية وأنا أعي أنني في مجموعة تعارض هذه السلطة. حتى حين كنت ذات يوم مع عبد الناصر وعضوا في الاتحاد الاشتراكي لم أكن أشعر أبدا أنني جزء من هذا النظام أو أنني أوالي هذه السلطة.

وعلى هذا النحو جاء كافة القيادات الذين أسسوا الجماعة الإسلامية مثل الشيخ صلاح هاشم والشيخ أسامة حافظ والشيخ حمدي عبد الرحمن والشيخ ناجح إبراهيم، كلهم كانوا على هذا المذهب ومن هذا المشرب، ولعل هذا هو الذي جمع بيننا في أعماقنا: شعورنا بالمعارضة لهذا النظام الفاسد الذي لا يخدم البلد، بل هو نظام يوالي اليهود والأمريكان، نظام لا يمكن قبوله، ولا يمكن أن يكون هذا هو النظام الإسلامي بحال، ومن ثَمَّ فقد استشعرنا الواجب المفروض علينا: أن نقوض هذا النظام لإحلال نظام أفضل. تلك هي أساس الفكرة التي تكونت حولها الجماعة الإسلامية رويدا رويدا.

وإذا أردت أن ألخص نشأة الجماعة الإسلامية في سياق واحد، يجمع ما سبق أن فصَّلْتُ فيه، فسيكون كالآتي:

- كانت المجموعة الأولى التي تشكلت منها نواة الجماعة الإسلامية من شباب يجد في نفسه إنسانا معارضا لهذا النظام المصري، وهم: صلاح هاشم وأسامة حافظ وحمدي عبد الرحمن وأبو بكر عثمان وناجح إبراهيم. ومن أبرز ما يدل على ما كان عندنا من المعارضة الجذرية لهذا النظام أن واحدا منا كان اسمه جمال عبد الناصر من شبرا فغَيَّرَ اسمه إلى: عبد الله عبد السلام نفورا من اسم عبد الناصر.

- بحث هؤلاء الشباب عن طريق للعمل وتحقيق أحلامهم، فبدأ عملهم داخل جامعة أسيوط، التفوا في البداية حول دعاة التمسوا فيهم الإخلاص مثل الشيخ مصطفى درويش وعبد الله السماوي، ثم دعاة الإخوان المسلمين ممن كانوا يجوبون الجامعات مثل الشيخ الغزالي وكذلك الأستاذة زينب الغزالي رحمهما الله، وغيرهما.

- ثم حاولت جماعة الإخوان المسلمين احتواءنا لكنها لم تنجح، وكان لنا عليها مطاعن دينية تتعلق بعدم التزامهم عقيدة السلف الصالح وأن فيهم متصوفين،

ومطاعن سياسية تتعلق بتهدئتهم مع نظام السادات ومحاولتهم احتواء الشباب كنوع من رد الجميل له لإخراجهم من السجون. وهذه الخلافات اجتمع فيها أننا كنا شبابا متحمسين قصيري النظر شديدي الحماسة، مع طريقتهم الإقصائية الحادة التي تُضيق مساحة التعاون فإما الهيمنة وإما المفارقة.

 ثم نجحنا في الفوز بانتخابات اتحاد الطلاب، وكان قفزة واسعة في نشاطنا الدعوي بالجامعة، وفي ظل هذا النشاط الدعوي كانت هذه المجموعة تمثل قيادة للجامعة، ومن هنا استطاع هؤلاء الشباب أن يكونوا هم المهيمنون على الحالة الدعوية في جامعات الصعيد، مما دفع الأستاذ مصطفى مشهور فيما بعد أن يحاول مع قيادات الجماعة الإسلامية أن ينضووا مرة أخرى تحت لواء الإخوان، وذلك في صيف 1978 أو 1979، لا أتذكر بالضبط، لكنه لم ينجح في إقناع هذا الجيل، حتى مع موافقة عدد قليل على العمل مع الإخوان مثل المهندس أبو العلا ماضي ومحيي الدين عيسى.

في ظل هذه الظروف كانت قناعاتنا تسوق إلى إنشاء جماعة جديدة، جماعة تلتزم بالعقيدة الصحيحة والهدي الظاهر، تناوئ السلطة وتستثمر حماسة الشباب وطاقتهم في معارضتها، تتجاوز جماعة الإخوان التي كانت قناعتنا وقتها أنها غير قادرة على حمل همّ الأمة.

النواة الأولى

بمقاييس ذلك الزمن، وقياسا إلى أعمارنا وخبراتنا كانت هذه فكرة أشبه بالجنون، تحتاج إلى ثقة عظيمة في النفس، كما تحتاج عزما عظيما، وجهدا غير عادي، ولو اطلع أحدُ على ما في نفوسنا وقتها لعدَّنا مجموعة مخبولة، ثلة طلاب في جامعة

من الصعيد تريد أن تكون بديلا عن جماعة بحجم الإخوان المسلمين!!

بدأت النواة بصلاح هاشم وحمدي عبد الرحمن ورفاعي طه وكرم زهدي وأسامة حافظ وناجح إبراهيم، لكن التكوّن الفكري بالشكل السابق كان متمثلا بشكل أكبر في أسامة حافظ وصلاح هاشم والفقير إلى الله، بينما كانت للشيخ كرم زهدي نزعة جهادية، فهو أميل إلى ألا تكون الجماعة قائمةً على فكرة بقدر ما أنها تقوم على التغيير، والتغيير السريع، أي أنها جماعة ثورية!

وخلاصة الأمر أننا شرعنا في إنشاء جماعة على التصور السلفي وعلى العمل الثوري الذي يستهدف تغيير النظام.

عقدنا العزم على أن يكون أعضاء الجماعة الإسلامية أصحاب عقيدة صحيحة، عقيدة السلف الصالح، فشرعنا في دراسة العقيدة الطحاوية وتدريسها لأعضائنا، ولا بأس من التعريج على كتابي «التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب وشرحه «فتح المجيد»، وفي الفقه لا بأس بدراسة كتب الفقه الحنبلي وإن كنا نميل في هذه المرحلة إلى كتب الفقه المقارن بصفة عامة، كنا نحاول أن نخط لأنفسنا خطًّا محددا بعيدا عن التجاذبات الموجودة عند السلفيين، الذين لم نكن راضين عن خطهم، وكنا نسميهم «صوفية الحركة الإسلامية»، أمثال الشيخ الدبيسي وأسامة عبد العظيم وغيرهم، وكان هؤلاء الأقرب إلينا، وكانوا هم سلفية القاهرة قبل أن يظهر الشيخ محمد عبد المقصود والمجموعات التي صارت تُعرف بسلفية القاهرة، ففي السبعينات لم يكونوا قد ظهروا بعد. وكان أخونا سيد العربي يمثل تيارا أقرب إلى التيار التكفيري بمعنى أنه لا يعذر بالجهل ونحو هذه الأمور، وكنتُ في هذه الأفكار أقرب إلى الفكر الذي لا يجنح إلى التكفير، ومع هذا كنت قريبا من الشيخ سيد العربي ومن الشيخ ناجح في نفس الوقت، وحاولت بقدر الإمكان أن أقارب بينهم بحيث يستمر سيد العربي ضمن الجماعة

الإسلامية، لكن لم أنجح في هذا، وخرج سيد العربي، لكن في ذلك الوقت لم يكن قد أصبح تيارا بعد، ورجع إلى شبرا وصارت له مجموعة داخل شبرا.

صار للجماعة الإسلامية تأسيس فكري قائم على العقيدة الطحاوية، لا يجنح إلى التكفير، وعملنا في مرحلة مبكرة جدا قبل أن ندخل إلى السجون، مجموعة رسائل صغيرة في مسألة «عدم العذر بالجهل»، وتصدينا لفكر التكفير الذي نشره شكري مصطفى، لأنها بدأت في أسيوط، وكنا نحذر الشباب من ذلك. وعلى المستوى الفقهي لم نكن نتبنى مذهبا فقهيا لكن كان المذهب الحنبلي أقرب إلى مدرسة أهل الحديث، التي كنا نستند إليها، فكنا ندرس كتب: المغني والكافي والعمدة، وجاء المغني في مرحلة متأخرة لاتساعه وطوله بينما كانت البداية بالعمدة والكافي. بالإضافة إلى كتب ابن القيم وابن تيمية، وهؤلاء الثلاثة: ابن قدامة وابن تيمية وابن القيم كانوا بمثابة المرجعيات العلمية التي ندرس كتبهم ونتتلمذ عليها ونقدمها، ثم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

وفي هذا كله كنا مجتهدين بذاتنا، لم نقلد أحدا، وعندما شببنا عن الطوق وقررنا تكوين الجماعة الإسلامية بدأنا في بحث «الطائفة» في مرحلة مبكرة جدا، إلا أنه أخذ قيمته العلمية بعدما دخلنا السجن، وربما نأتي في سياق آخر للتعريف بهذه الكتب، لا سيما الكتب الثلاثة: «الطائفة» و«شحذ الهمة» و«الميثاق» التي كانت أهم إنتاج الجماعة الإسلامية وتمثل محاورها الفكرية فيما بعد، لكن لا نزال الآن في الشكل الهلامي للجماعة الإسلامية.

كذلك أقمنا لقاءً سميناه «لقاء الإثنين»، وبدأنا نجيب على سؤال: لماذا الجماعة الإسلامية؟ وبم تتميز؟ ولماذا فارقت الاتجاهات الإسلامية الأخرى؟ فشرعنا في بيان هذا نرد على رؤية الإخوان المسلمين، ورؤية أنصار السنة المحمدية، ورؤية الجمعية

الشرعية، ورؤية بقية الأطياف الإسلامية بحيث نبرر ونفسر لماذا وجدنا أنه من الضرورة إنشاء الجماعة الإسلامية.

تركزت خلاصة الفكرة الثورية للجماعة الإسلامية في القيام على دعوة مكثفة مناهضة للنظام تعمل على تثوير الشعب المصري وكسر حاجز الخوف الذي ينتصب بين الناس وبين السلطة، ومن ثم فلا بد أن تدعو خطاباتنا ولقاءاتنا وكل محاضراتنا لتسفيه النظام المصري وكسر هيبته واختراق رهبته وتجريء الشعب عليه.

خرافة صفقة السادات مع الإسلاميين

لا شك أن مرحلة السادات كان فيها قدر كبير من الحرية لكافة التيارات، قياسا بما سبقها وبما تلاها من الحقبة العسكرية المصرية، فقد كان نشاطنا هذا كله علنيا، ومع هذا فلا ننسى أن هذا القدر الكبير من الحرية الممنوح للجميع كان السادات يريد أن يحرم التيار الإسلامي منه، لكن هذه المعادلة كانت صعبة وغير ممكنة التنفيذ بشكل كامل.

وهنا أنتهز الفرصة للرد على شائعة مشتهرة تقول بأن السادات سمح للجماعة الإسلامية أو للتيار الإسلامي بصفة عامة أن يضرب التيار اليساري داخل الجامعات، وأنه كان متواطئا معها، أو أن الجماعات الإسلامية كانت متعاونة أو متحالفة أو عميلة للسادات بشكل أو آخر.

إنني أقرر هذا بيقين أن هذه المقولة خاطئة 100%، بل إن السادات منح الشرعية والاعتراف الرسمي لثلاثة تيارات رئيسية: تيار الوسط الذي كان يمثله حزب مصر، والحزب الوطني الذي هو حزب السلطة، والليبراليين الذين كان يمثلهم في وقتها حزب الأحرار،

ثم منح الشرعية لحزب الوفد وحزب العمل الذي كان أقرب إلى اليسار، وتمخض عن التيار اليساري جريدة الأهالي، فكان في مصر ثلاثة تيارات تمنح الشرعية والاعتراف الرسمي، بينما لم يكن للتيار الإسلامي أي حزب رسمي!

لم يكن السادات متعاونا قط مع التيار الإسلامي، بل كان يعمل على تقويضه، وأكبر دليل على هذا سعيه الحثيث لاجتثاث الإسلاميين من اتحادات الطلاب، وكانت هي المؤسسة الوحيدة التي يهيمن عليها الإسلاميون لأنها تنتج من انتخابات الطلاب لا باعتراف من السلطة، واتحاد الطلاب هو مؤسسة صغيرة جدا إذا قورنت بالعمل السياسي الممنوح للتيارات غير الإسلامية، لقد كان السادات حريصا على إبقاء التيار الإسلامي خارج دائرة الشرعية ليكون نشاطه تحت التهديد الدائم، ولقد كان يستهزئ كثيرا -كما في اللقاء الشهير- بالأستاذ عمر التلمساني رحمه الله، ويناديه: يا عمر.. يا عمر، مجردا من أي ألقاب، وقد كان أكبر منه بحوالي خمسة عشر عاما!

يمكن للقارئ أن يرجع إلى التسجيل، ليستمع إلى الأستاذ التلمساني وهو يقول له: لو فعل ذلك غيرك لشكوته إليك، أما والأمر منك فإني أشكوك إلى الله، فيرد السادات: «اسحب شكواك يا عمر فإني أخافه»، في لهجة استهزائية واضحة. أضف إلى هذا هجوم السادات على شعائر الإسلام، وقد وصف الحجاب بالخيمة، وهجومه على الشيخ أحمد المحلاوي وقوله عنه: مرمي في السجن زي الكلب، وقد شن ضده حملة كبرى.

لقد كان السادات من خصوم التيار الإسلامي، وكان مناهضا له ساعيا في تقويضه، وفتح للتيارات الأخرى بما في ذلك اليسار الذي امتلك جريدة التجمع، وقد كانت صحيفة قوية في هذه المرحلة، وكان لكل تيار كيان إلا الإسلاميين، وغاية ما تحصل الإسلاميون عليه من كرم الحريات هذا مجلة الدعوة التي صدرت للإخوان المسلمين، وحصل الأستاذ حسين عاشور على تصريح لاستئناف صدور مجلة الاعتصام، وأصدر أيضا مجلة المختار،

وقد صودرت هذه المجلات في غضبة السادات المشهورة عام 1981م.

والشاهد من هذا أن الحركة الإسلامية استفادت من الهامش الذي فتحه السادات للجميع، وكانت أقل هذا الجميع استفادة من هذا الكرم الساداتي، إن صح أن تسمى الحقوق كرما كأنها من جملة المنح والعطايا التي يهبها الحاكم للناس.

ولست أوافق حتى على القول بأن السادات فتح المساحة للجميع وهو يعرف أن التيار الإسلامي سيقوم بدوره في هزيمة التيار اليساري، ذلك أن قرار مواجهة اليساريين كان قرارا ذاتيا بدأه الإسلاميون من تلقاء أنفسهم وبطبيعة أفكارهم التي تناهض الكفر والانحلال اليساري، ولم يكن في ذلك مدفوعا من أحد إطلاقا. ومن الأدلة على ذلك أن التيار الإسلامي لم يسلم من السلطة وهو يواجه اليساريين بل تعقبته السلطة، فلقد كان يُساق الطلاب الإسلاميون إلى مجالس التأديب وتوقع عليهم العقوبات داخل الجامعات إثر ما يكون بينهم وبين اليساريين من المعارك والاشتباكات، فلم تكن السلطة تمنحنا ولا حتى غض الطرف عن هذه المعركة التي يُقال إنها في صالحها!!

إن كافة ما وقع بيننا وبين اليساريين من مواجهات واشتباكات وما حققناه من مكاسب إنما انتزعناه عنوة رغم أنف اليسار ورغم أنف السلطة معا، وأمورٌ مثل التي ذكرتها سالفا كالحجاب والكتاب الإسلامي والمعرض الإسلامي وتنظيم المدرجات لمنع الاختلاط بين الشباب والفتيات، والهدي الظاهر وغير هذا من محاولات صبغ الجامعة بالصبغة الإسلامية، كل ذلك إنما دفعنا ثمنه من أعمارنا ومستقبلنا وتحملنا ضريبة الفصل من الجامعة، وضريبة دخول المعتقلات والسجون في مرحلة مبكرة من أعمارنا إذ كنا في ريعان الشباب.

لم يكن نمو التيار الإسلامي في عهد السادات مقصودا منه، بل انفجر رغما عنه،

ولقد حاول هو كثيرا أن يحتوي هذا التيار ويقلم أظافره ويقضي عليه، واستعمل في ذلك ذهب المعز وسيفه، ولكنه فشل في ذلك، ولقد حاول نظام السادات مرارا اختراق الجماعة الإسلامية، والقبض على رموزها، وحاول تحييدها، ومما وقع لي شخصيا أنه كان يُلقى القبض عليّ في الامتحانات بقصد تعطيل مساري الدراسي، وظللت على هذا الحال أربع سنوات في السنة الأخيرة من الكلية، فقد كان ينبغي أن أتخرج في سنة 1978 ولكني ظللت محروما من هذا التخرج حتى سنة 1982، ثم دخلت السجن ولا زلت لم أمتحن مادتين من مواد السنة النهائية. كان هذا شيئا من محاولات النظام تقويض الجماعة الإسلامية ورموزها وتشويههم، فكيف يُقال: أطلق السادات الحرية للتيار الإسلامي للقضاء على اليساريين؟ أو كيف يقال إن التيار الإسلامي كان متواطئا ومتعاونا مع السادات؟!

نعم، يمكن القول إن الجماعة الإسلامية لم تتعرض في عهد السادات لمثل الجحيم الذي تعرضت له في عهد مبارك، ولكن قياسا بما كان موجود من هامش الحرية، فقد تعرضت الجماعة الإسلامية؛ تعرضت لأكثر أنواع التضييق في ذلك الوقت.

وحين أقول «الجماعة الإسلامية» فأنا أعنيها من بين كل التيارات الإسلامية، ولكن لا يعني هذا أن بقية الإسلاميين كانوا ينعمون بحرية كالتي ينعم بها الآخرون، بل حتى الإخوان المسلمين، بالرغم من موقفهم المهادن للنظام كان مُضيقا عليهم، وما إن ارتفع صوتُهم حتى شرعت السلطة في تقويضهم كذلك، وأشهر ما في هذا ما جرى بين السادات والأستاذ التلمساني، وما جرى بين السادات وعبد المنعم أبو الفتوح وصياح السادات في وجهه: قف مكانك.. قفك مكانك! الإسلام علمكم ذلك الأدب؟!

لقد ضاق السادات ذرعا بالتيار الإسلامي، ولم يكن مستعدا أن يقبل بهذا النمو الذي كان رغما عنه، مع أن الإسلاميين في هذا الوقت لم يكونوا يملكون شيئا غير الكلمة،

ولقد كان يعلم أننا لا نملك شيئا غير هذه الكلمة.

جماعة ثورية سلفية

أعود إلى لحظة تأسيس الجماعة الإسلامية..

وكنت ذكرت أنها قامت على رؤية تخالف رؤية الإخوان والسلفيين أيضا، فقد كانت الرؤية: تكوين جماعة ثورية دينية عقدية سلفية للتغيير، ونستطيع التأريخ للاجتماع التأسيسي بهؤلاء الستة (صلاح هاشم وأسامة حافظ وحمدي عبد الرحمن وأبو بكر عثمان وناجح إبراهيم ورفاعي طه)، في أواخر السبعينات (1978 - 1979م). وقد بسطنا رؤيتنا في جلسات عقدناها في الجمعية الشرعية، حددنا فيها «من نحن؟» و«لماذا الجماعة الإسلامية اليوم»؟ وكتبنا فيها هذه الأفكار في كشاكيل كانت تُدَرَّس للإخوة، وهذه وثائق هامة لا أدري إن كان ثمة أحد من قادة الجماعة الإسلامية يحتفظ بها أم لا.

كنا نعرض أنفسنا وأفكارنا على الشباب من واقع ما نخرج به في هذه الجلسات، لم يكن الميثاق قد كُتِب بعد، إنما كتب ميثاق الجماعة الإسلامية فيما بعد في السجن.

تتلخص وسيلتنا للتغيير في: ثورة شعبية يدعمها إخواننا في الجيش أو بعض الإخوة المدربين على حمل السلاح.

وبهذا تلخص عملنا في ثلاثة أمور:

1. دعوة نشطة تُسَفِّه النظام وتعمل على تثوير الشعب المصري

2. تكوين مجموعات في الجيش تعمل على الانحياز للثورة أو على الأقل عرقلة وتعويق تحرك الجيش للقضاء عليها

3. مجموعات مدنية مدربة على السلاح تتمكن من حماية الثورة عند قيامها

ولم نضع تصورا زمنيا لهذا، كنت من الذين يقولون إن التصور الزمني ينبغي أن يظل مفتوحا، حتى نختبر أنفسنا وإمكانياتنا وقدراتنا.

على أنني، وبعيدا عن عمل الجماعة الإسلامية، وقبل أن تستقر لدينا هذه الرؤية في الجماعة الإسلامية، بل قبل أن تتحول الجماعة الإسلامية التي تكونت في الجامعة إلى تنظيم يعمل خارج الجامعة، قبل هذا كله كنتُ أعمل بشكل ذاتي ومنفرد على تجميع الضباط العسكريين، وبدأت بالفعل في البحث عمن يمكن أن يكونوا نواة عمل في الجيش، مثل الشيخ محمد شوقي مع خالد الإسلامبولي، وهكذا!

وكنت أعرف ضابطا من مركز أرمنت اسمه محمد أحمد القيرفاني رحمه الله، وقد سُجِن في أحداث 1981 فيما بعد، وكان برتبة مقدم في كلية الفنية العسكرية ومديرا لمطار الأقصر.

تعرفت على خالد الإسلامبولي حين كنا معا من تلاميذ الشيخ السماوي، وكان من تلاميذ الشيخ السماوي أيضا عبد الحميد عبد السلام وهو المتهم الثاني في قضية اغتيال السادات.

وأذكر يوما قال لي فيه خالد الإسلامبولي: إن الشيخ عبد الله السماوي يحثنا على ترك الجيش بسبب أن إعفاء اللحية ممنوع فيه.

فقلت له: لا تترك الجيش، بل احلق لحيتك.

قال: هل لديك دليل شرعي على هذا؟

قلت: نعم، إن حلق اللحية حرام لا شك، لكن النفع الكبير الذي قد يأتي منك لو بقيت في الجيش أعظم بكثير من إعفاء اللحية وترك الجيش.

وأقنعته بهذا، واقتنع!

ثم قررنا أن نجمع الضباط الذين انضموا إلينا، لنجعلهم في مسؤولية الشيخ عبود الزمر، وكان الشيخ كرم زهدي قد تعرف في ذلك الوقت على أخ من بولاق اسمه شعبان، وكان تعارفهما في العمرة أو الحج، وعرف منه أن ثمة تشكيل آخر في الصعيد يبحث نفس الفكرة.. كان هذا التشكيل هو مجموعة محمد عبد السلام فرج!

عقد الشيخ كرمُ العزمَ على التعرف على محمد عبد السلام فرج حين يعود إلى مصر، وزاره مع أخينا شعبان هذا، وحصل بينهما توافق وانسجام، ونمت بينهما أخوة ومحبة في الله، ثم زارنا الشيخ محمد عبد السلام وبدا أنه قريب للغاية منا، وسرعان ما توطدت العلاقة بيننا.

تطور تنظيم الجماعة الإسلامية

إلى ذلك الحين كان مجلس شورى الجماعة الإسلامية هو المجلس نفسه الذي ضمَّ قيادات العمل في الجامعة، وهم قد تخرجوا الآن، وصاروا مجلس شورى الجماعة الإسلامية التي تكوَّنت لها هذه الرؤية التي أسلفت الإشارة إليها. ثم عزمنا أن ننشئ مجلسا قياديا خاصا بالتنظيم العسكري الذي سيتحمل مؤونة التغيير الثوري، وكان هذا

المجلس الخاص بالتنظيم هو الذي ضمَّ صفوة المؤسسين للجماعة الإسلامية باعتباره التنظيم الأهم والأكثر خطورة، لكن تدريجيا صار هذا المجلس الخاص هو نفسه مجلس شورى الجماعة الإسلامية كلها.

تكون هذا المجلس من الشيخ طلعت فؤاد قاسم والشيخ صلاح هاشم والشيخ عصام دربالة والشيخ كرم زهدي، وكان لقاؤنا التأسيسي الأول في بيت الشيخ طلعت فؤاد قاسم في نجع حمادي، المركز التابع لمحافظة قنا، وكان المبادر إلى ذلك الشيخ طلعت فؤاد قاسم فتولى هو مسؤولية هذه الجلسة، وفيها بادر الشيخ كرم زهدي قائلا: هذا الأمر عظيم وهذا العمل كبير، ويحتاج إلى قاعدة اقتصادية وقاعدة عسكرية، فأرجو أنكم تفوضوني لهذا الأمر. فوافقنا!

والتفويض هنا بمعنى أن يكون له أمر اختيار الشخص المناسب لكل عمل أو مسؤولية، بحيث يتحقق الهدف: بناء القاعدة الاقتصادية والعسكرية للجماعة الإسلامية بتحقيق وجود قوي للجماعة داخل الجيش وبناء مؤسسات اقتصادية توفر التمويل اللازم لكل العمل الدعوي والتنظيمي.

وسرعان ما انضم إلى المجلس الشيخ حمدي عبد الرحمن والشيخ ناجح إبراهيم والشيخ عاصم عبد الماجد والشيخ محمد عبد السلام فرج والشيخ عبود الزمر، فهذا هو مجلس شورى الجماعة الإسلامية الذي تشكل باختيار من الشيخ كرم زهدي بناء على التفويض المُعطى له في اللقاء التأسيسي أو اللقاء التنظيمي الأول، وكان المجلس يتمثل في أحد عشر عضوا -أو ثلاثة عشر عضوا- بقيادة الشيخ كرم زهدي.

تأخر عن الانضمام الشيخ أسامة حافظ، كان متحفظا على أمريْن؛ الأول: خوض الجماعة في المجال العسكري، فقد رأى أنه يسير بخطوات متسارعة للغاية ويجب أن

يكون الأمر أبطأ وأكثر أناة وتريثا. والثاني: العمل مع إخوة الوجه البحري الذين تعرفنا عليهم مثل الشيخ محمد عبد السلام والشيخ عبود وغيرهم. إلا أنه في نهاية الأمر التحق بالركب وانخرط في العمل.

انقسم العمل إلى ثلاث لجان رئيسية: لجنة العُدَّة، ولجنة الدعوة، واللجنة الاقتصادية. فالأولى يهمها الإعداد العسكري ورئيسها الشيخ كرم زهدي، والثانية للعمل الدعوي الشعبي التثويري ورئيسها الشيخ محمد عبد السلام فرج، والثالثة: لتوفير احتياجات العمل كله ولا أذكر الآن من كان رئيسها.

نشطت لجنة الدعوة في الوجه البحري لكونها تحت قيادة محمد عبد السلام فرج، بينما كان نشاط بقية اللجان يغلب عليه الصعيد لطبيعة القائمين عليه.

الشيخ عمر عبد الرحمن

نبتت في ذهن الشيخ كرم فكرة أن نضع على رأس الجماعة أميرا يكون من علماء المسلمين، فالجماعة إنما هي جماعة إسلامية شرعية دينية، ومن اللائق أن يكون على رأسها عالِم، وبحثنا عن عالم معتبر يمكن أن يقبل بهذه المهمة، فوقع الاختيار على الشيخ عمر عبد الرحمن، فقد كان أكثر العلماء جرأة وقوة في هذه المرحلة.

ذهب ثلاثة منا، وهم الشيخ كرم زهدي والشيخ طلعت فؤاد والشيخ محمد عبد السلام، إلى الشيخ عمر عبد الرحمن، وعرضوا عليه أفكار الجماعة وأهدافها وقيامها على محور دعوي وعمل عسكري وعمل شعبي وهكذا، وكان السؤال الأول: هل جماعة بهذه الصفة يجوز لها أن يكون على رأسها عالم من العلماء؟ فقال: يجوز أن تستعينوا بعالم من علماء المسلمين ليقوم بأمر الجماعة.

وبعد حين ذهبوا إليه مرة أخرى عارضين عليه أن يكون هو نفسه هذا العالِم:

- قالوا له: قد وقع اختيارنا على فضيلتك للقيام بهذا الأمر

- فقال: لا أستطيع ذلك، وهذه مهمة كبيرة، ويحسن أن يقوم بها رجل صحيح وليس ضريرا مثلي!

- فقالوا: هل كون الرجل ضريرا يمنعه شرعا من أن يتولى إمارة جماعة للمسلمين؟ أم أن الأمر متعلق باستطاعتك أنت نفسك؟

- فقال: لا، من الناحية الشرعية يجوز للضرير أن يكون أميرا، وقد أمَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أم مكتوم -وكان أعمى- على المدينة حين خرج لبعض الغزوات، لكن المانع هو الصعوبة الخاصة بي أنا.

- فقالوا له: لا عليك من هذا، فنحن معك، ونحن بصرك الذي تبصر به، وسمعك الذي تسمع به، وكلنا لك أعوان وأتباع.

وانتهى الأمر على أن أقنعوه، وبايعوه أميرا على الجماعة الإسلامية.

صار الشيخ عمر أميرا على الجماعة الإسلامية ولم تعلن إمارته لها، إنما أعلنت بعد أحداث 1981م، ولم يكن الشيخ في ذلك الوقت معروفا لعموم أعضاء الجماعة الإسلامية بل كان معروفا لمجلس الشورى.

ولقد كان الشيخ عمر رجلا كبير النفس قويا، وما كان أمرا سهلا أن يتولى أحد قيادة جماعة على هذا النحو أبدا، وأظن أن المسؤولية عُرِضت على آخرين تلميحا لكن أحدا منهم لم يُبْدِ تجاوبا كافيا للفكرة نفسها، إلا الشيخ عمر، فقد كانت قوته وحماسته وعلو همته وتجاوبه مع الفكرة مما شجعنا على إسناد الإمارة له، ولما قبلها بعد

إلحاحنا عليه، قطع إعارته لكلية البنات الإسلامية في السعودية، وهذه فرصة عمل متميزة يسعى لها الناس، إلا أنه تركها وتخلى عنها وبقي ليتولى أمر الجماعة التي كانت ما تزال في مرحلتها الهلامية ولما يستتب أمرها بعد. ولقد شهدت الجماعة أفضل عصورها في هذه المرحلة.

الإعداد للمواجهة

تسارع الأمر، وبدأنا نختار أماكن لتدريب الشباب في الجبال، كان منها أماكن في قنا وسوهاج، وبدأنا نجمع الإخوة الضباط الذين كانوا معنا مثل الشيخ عبود الزمر وأحمد القيرفاني وخالد الإسلامبولي، وكان هذا التسارع المفعم بالحماسة هو اللائق بشباب حديث التخرج في ذلك الوقت.

ولم يكن كل عضو في الجماعة الإسلامية يرسل به إلى التدريب، بل لا بد أن تتحقق في هذا العضو شروط خاصة، وقد بدأ هذا الأمر من سنة 1980/1979م وبحلول أحداث 1981 كان لدينا في الجماعة من مائتين إلى ثلاثمائة عنصر مدرب من الجماعة الإسلامية، وطوال ذلك الحين لم يُكتشف أي شيء من معسكرات تدريب الجماعة الإسلامية، ولا أي عضو، ولا أي سلاح. بل إن أول حالة جرى اكتشافها في 18 سبتمبر 1981م، أي قبيل أحداث المنصة بفترة وجيزة!

كانت الجماعة الإسلامية، بمثابة الأم، ويُنتقى منها الأعضاء الصالحون لهذا العمل النوعي العسكري الذي يعمل على تغيير النظام، بينما بقية جسم الجماعة علني مفتوح، يمارس النشاط الدعوي والاقتصادي والسياسي، ولها علاقاتها الممتدة بالأطراف الموجودة في ذلك الحين، ولا تستنكف من التعاون مع أحد، وقد آلينا على أنفسنا أن تكون علاقتنا حسنة بالجميع؛ كالإخوان المسلمين والسلفيين والأزهريين والأحزاب

القائمة التي كانت في ذلك الوقت منبرا أكثر منها أحزابا حقيقية.

وركزنا العمل في ذلك الوقت على أئمة وزارة الأوقاف، إذ هؤلاء هم خطباء المساجد، وكان لنا في هذا الباب نشاط كبير، وقد كان معظمهم من الشباب القريب منا في السن، وكنا نؤثر فيهم، ونجحنا في مرحلة لاحقة أن يكون كثير من هؤلاء على خط الجماعة الإسلامية لا سيما في الصعيد، وبهذا الأسلوب تحولت كثير من المساجد التابعة لوزارة الأوقاف إلى مساجد تابعة لدعوة الجماعة الإسلامية.

ولعل المعاصرين الآن لا يتذكرون أن أئمة وزارة الأوقاف في ذلك الوقت كان السائد فيهم حلق اللحى وتدخين السجائر، وإنما هو يرتقي المنبر ويخطب الجمعة كجزء بارد من وظيفة ميتة يتقاضى عليها أجرا لا أكثر، ولا يخطر بباله أمر الدعوة إلى الله ولا هداية الناس. وقد طرأ التحول على عموم أئمة المساجد والخطباء حتى صار عيبا أن يوجد فيهم حليق اللحية أو مدخن السجائر أو الذي يكرر الخطبة الميتة ويحفظها في المناسبة، هذا التحول إنما كان للجماعة حظ كبير منه!

كانت لنا مجهودات أخرى مع الشيوعيين والصوفية والعصاة، ثم مجهودات أخرى في هذا العمل التغييري، لقد كانت هاتان السنتان (من أواخر 1979 حتى أحداث 1981م) حافلتين بالبركة والنشاط، إن الإنجاز الذي حصل فيهما بالمقارنة إلى حجمنا وقدراتنا كان شيئا عظيما جدا جدا جدا!

لعلنا في اللقاء القادم نستعرض المجهود المبذول مع الشيوعيين والصوفية والعصاة إن شاء الله..

أقول أنا محمد إلهامي:

لكن الله تبارك وتعالى لم يشأ، سبحانه هو الحكيم الخبير، فقد كانت هذه آخر مرة لقيت فيها الشيخ لتسجيل مذكراته، بتاريخ الأول من نوفمبر 2015م، ثم شُغِلْت عنه وشُغِل عني، ولم يتيسر أن نستكمل بقية هذه المذكرات حتى فوجئت بخبر استشهاده في الشام (إبريل 2016م) رحمه الله.



هدية العدد ٣٤ من مجلة كَلِمةُ حقّ ، مايو ٢٠٢٠